الأبوان الشهيدان

نقولا خشّة الدّمشقيّ (†١٩١٧)

حبيب خشّة الدّمشقيّ (†١٩٤٨)

الأبوان الشّهيدان

نقولا خشّة الدمشقيّ

حبيب خشّة الدّمشقيّ

الأبوان الشّهيدان
نقولا خشّة الدمشقيّ
حبيب خشّة الدّمشقيّ

منشورات
بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس
٢٠٢٣

منشورات

بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس

هاتف: ٤٤٠٠/١/٢/٣ ٥٤٢ ١١ ٩٦٣+
فاكس: ٤٤٠٤ ٥٤٢ ١١ ٩٦٣+
books@antiochpatriarchate.org

أيقونة الغلاف:
رسم راهبات دير مار يعقوب، ددة، الكورة

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة

طبعة أولى
٢٠٢٣

يوحنا العاشر
بطريرك مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق

"أيها الرب إن المسكونة تقدم لك الشهداء اللابسيّ اللاهوت كبواكير الخليقة إلى بارئ الخليقة، فبطلباتهم وتوسُّل والدة الإله احفظ بالسلامة التامة كنيستك يا جزيل الرحمة".

"برحمتك أيها المسيح الإله ضمّدْتَ آلام الشهداء الذين أظهروا إيمانهم بك".

هذه كلمات رومانوس المرنم في مديحه جميع القديسين. وفي ثنايا هذه الكلمات تختصر كنيسة أنطاكية مسيرة حبها للمسيح الإله ومسيرة شهادتها له وحده على مر ألفي عام. برحمته ضمدت جراح شهدائها وبرجاء قيامته صبغت كينونتها وبقوة صليبه صلبت ضيقها وبطعنة حربته كسرت حراب تاريخها.

ومن خريف العام ١٩٩٣ العام الذي أعلن فيه المجمع الأنطاكي المقدس قداسة الأب يوسف حداد إلى خريف العام ٢٠٢٣ العام الذي أعلن فيه المجمع عينه قداسة الأبوين نقولا وحبيب خشة شهادةً أن كنيسة أنطاكية التي لفّت العالم وزنرته بيسوع المسيح هي مزنرةٌ بدم الشهداء الذي ترجموا حبهم دماً أريق لمن أهرق دمه على صليب المحبة.

وانطلاقاً من كل هذا، ننشر سيرة حياة واستشهاد الأبوين الشهيدين في الكهنة نقولا خشة وابنه حبيب اللذين قدما حياتهما للسيد له المجد بموت الشهادة الأول في مرسين سنة ١٩١٧ والثاني في جبل الشيخ سنة ١٩٤٨.

وإذ ننشر هذا الكتاب، نشدد على أهمية القداسة في حياة المؤمنين. ونشدد أيضاً على أهمية الشهادة للمسيح الرب الذي نثرنا ههنا في هذه الأرض شهودَ محبةٍ لربٍّ أحبنا حتى الصليب وبذل دمه من أجلنا وبادلناه الحب بالحب.

على خطى سيدها، تعيش كنيسة أنطاكية تلك المصلوبية وتلك المحبة التي ترجمتها صلاةً ونسكاً ورهبنةً وحياة فضيلةٍ وانغراساً وقوة عزيمةٍ وشهادةً صبغت كينونتها على مدى ألفي عام.

ألا فليهب الله بشفاعاتهما كل تعزيةٍ ورحمةٍ تضمّد قلبَ كل من هام في حبه تعالى واتخذه نصيراً وأزراً لا يغلب.

دمشق، ٢٠ تشرين الأول ٢٠٢٣.

☩ يوحنا العاشر
+ يوحنا العاشر
بطريرك أنطاكية وسائر المشرق

الفهرس

الأب نقولا خشّة ١١
تاريخه ١٣
مناقبه وفضائله ١٩
استشهاده ٢٠
شهادات أهل زمانه فيه ٢٣

الأب حبيب خشّة ٥٥
تاريخه ٥٧
استشهاده ٧٠
شهادات أهل زمانه فيه ٧٥

الطروبارية ٨٣

المصادر ٨٧

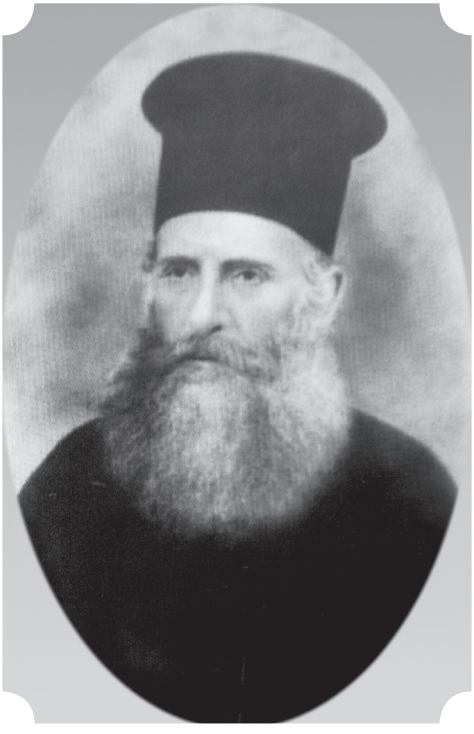

الخوري الشّهيد في الكهنة

نقولا خشّة الدّمشقيّ

✝ ٢ آب ١٩١٧

تاريخه:

ولد عَلَمنا في دمشق في ٣١ آب ١٨٥٦ من أبوين تقيَّين هما يوسف خشّة ومريم مقبعة، وقد تربّى، منذ طفولته، على نُكران الذّات وحُبّ الكنيسة والاندفاع من أجلها. تلقّى علومه في المدرسة الأرثوذكسيّة الكبرى (الآسيّة)، ثمَّ تعاطى، في شبابه، تجارة الحرير، إذ كانت تجارة الحرير وحياكته، في القرن الماضي، بيد رعيّة دمشق المسيحيّة. ونظراً لما عاناه من تعطيل الأشغال انتقل إلى مصر التي كانت، في تلك الحقبة، ملتقى لنخبة المتنوّرين الشَّاميِّين الَّذين فرُّوا من مضايقات البوليس التركي، وبقي فيها مدَّة ثمانية أشهر يُحاول تطوير عمله فيها وخصوصاً في التجارة. إلّا أنّ النّجاح لم يكن حليفه هناك، فقرّر العودة إلى موطنه دمشق ليجد أنّ الرعيّة فيها قد أجمعت على انتخابه كاهناً وراعياً لها. وقد وافق البطريرك ملاتيوس (الدُّومانيّ) على ذلك فوراً نظرا لما عهده في عَلَمنا من صفات، فرسمه شمّاساً في الكاتدرائيّة المريميّة بتاريخ

٢٥ آذار ١٩٠٠، وكاهناً في ٣ حزيران ١٩٠٠، وكان قد تزوّج ورُزِق وَلَده حبيب وإخوتَه.

انصرف الخوري نقولا، بكلّ همّة وحكمة، إلى خدمة الرّعيّة ورَئس جمعيّة القدّيس يوحنّا الدمشقيّ فيها لمدّة طويلة. كانَت الجمعيّة تمتلك مكتبةً خاصّةً متميّزةً، وكان من محفوظاتها مخطوطاتٌ ومطبوعاتٌ بكلّ اللغات، وتُعَدُّ الأولى من حيث النّوعيّةُ والكمّيّة، بالإضافة إلى وسائل إيضاحٍ تعليميّة، إذ كان أوّلُ أهداف هذه الجمعيّة تطويرَ العلوم لأبناء الرعيّة بدمشق؛ أمّا مَقَرُ الجمعيّة ومكتبتُها فكانا في المدرسة الآسيّة، ويمكن تحديد المَقرّ الآن فوق حرم الطّريق الواصل ما بين مبنى الآسيّة الحاليّ ومدرسة الصّغار حيث ما تزال بقايا أقواسٍ بارزةً من جدار مدرسة الصّغار الخارجيّ الشّرقيّ تدلّ على ذلك. ولعَلَمنا أياد بيضاءُ مسجَّلةٌ بَصَماتُها في تاريخ الجمعيّة، منهَا خَدماته اللّيليّة ومدرستها بالقَصّاع وغرف القراءة، وكان محبوباً جداً وحائزاً اعتباراً عظيماً، وفضَّاضاً للمشاكل.

كما كان عَلَمُنا السيّد نقولا خشّة قد تولّى رئاسة جمعيّة المدارس الأرثوذكسيّة في دمشق، وكانت هذه الجمعيّة - وهي مرتبطةٌ بالمجلس الملّيّ - تشرف على المدارس الأرثوذكسيّة في دمشق وهي: الآسيّة ومدرسة البنات

ومدرسة القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ في محلّة القَصّاع التي نشأت في أواخر القرن الماضي، ومدرسة القدّيس نيقولاس الكائنة داخل الصّرح البطريركيّ. كما وأدّى عَلَمُنا دوراً رئيساً في تطوير هذه المدارس وتحديث أساليب التّدريس فيها وتوحيد المناهج المعتمدة فيها جميعاً.

كان الخوري نقولا محترَماً جدّاً من الرّئاستين الزّمنيّة والرّوحيّة ومحبوباً جدّاً من رعيّة دمشق؛ لذلك، كان النجاحُ حليفَه في فضّ الخلافات. وكان مندوبَ البطريرك ملاتيوس لدى الحكومة ووكيلَه مدّةَ غيابه وطوافه في أنحاء الكرسيّ، وقد أبدى في عمله جَسارةً فاحتلّ منزلةً كبرى لَدى الحكّام. وظهر دوره، بأجلى بيان، عندما أسند إليه البطريرك ملاتيوس النِّيابةَ البطريركيّة بدمشق وزار، عام ١٩٠٠، بعض أبرشيّات الكرسيّ الأنْطاكيّ في لبنان والاسكندرون وأنطاكية. فقد أظهر مقدرة فائقة في الدّفاع عنَ مصالح الكنيسة لدى السلطات العثمانيّة، ما أَوجَبَ احترامها لشخصه. وتولّى أيضاً، ولفترة طويلة، وكالة دير سيّدة صيدنايا البطريركيّ، فتحسَّنت واردات الدّير وضُبطت أموره الماليّة بفضل زياراته الميدانيّة المتواترة له وتفقّده أوقافَه في دمشق وبيروت وغيرهما، وسعيه لإنشاء أُمطش للدّير في دمشق يُخصَّص كمَبيت لراهَباته في

خلال زيارتهنَّ لدمشق. وكان يراقب، بشكل دقيق، جمع المحاصيل من بستان الدّير ويشرف على تخزينها والاتّجار بها، كما سعى لإصلاح الكثير من غرف الدّير.

كان الخوري نقولا واعظاً وخطيباً لامعاً، وتشهد أرجاء الكاتدرائيّة لعظاته التي كانت تشدّ النفوس إلى اللّه. وكان، بآنٍ واحد، راعياً حكيماً وشجاعاً في حلّ المشاكل المستعصية متى نَشَبَت بين أفراد الرعيّة، وأهمّها ما كان يؤدّي إلى خروج البعض من الحظيرة الأرثوذكسيّة للالتحاق بالطّوائف الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة. لذلك، أوفَده البطريرك ملاتيوس، مرّات عدّة، إلى بعض الأبرشيّات الأنطاكيّة المترمّلة (لوفاةً مطارنتها) ومنها أبرشيّتا حلب وحاصبيّا، كما وإلى دير عطيّة ويبرود، لرأب الصَّدْع وإعادة الأبناء المتغرّبين إلى كنيستهم، وكان النجاح حليفه على الدّوام.

وفي سنة ١٩٠٨ استعفى المطران ألكسندروس طحّان من أبرشيّته كيليكيا – وكانت تضمُّ مدن مرسين وطرطوس وأضَنة - بسبب صعوبة الحياة فيها وتدنّي وارداتها، فوقع اختيار البطريرك غريغوريوس حدّاد على الخوري نقولا، فأوفده إلى هذه الأبرشيّة منتدَباً بطريركيّاً ووكيلاً، وجَعل مقّره في مرسين. وكانت حياته

في أبرشيّته سلسلةً من الجهادات والعمل الدَّؤوب؛ فلمّا حدثت المذابح في الولاية وُكِّل بالدّفاع عن مصالح بعض الطّوائف غير الأرثوذكسيّة أيضاً، وساعد متصرِّفَ مرسين مساعَدةً كبرى في تهدئة الخواطر. فقد أزال، أوّلاً، كلَّ الخلافات التي بين أبناء رعاياه ووحَّدَ كلمتهم وجذبهم جميعاً إلى الكنيسة. وإذ كانت علاقاته مع والي مرسين حَسَنَةً فقد سعى إلى إصلاح الأوقاف وإعادة بناء كنيسة رؤساء الملائكة بشكلها الحاليّ الجميل، وعمّر قبّة الجرس، وأعاد فتح مدرستَي الصِّبيان والبنات في حَرَم الكنيسة فأصبح عددهم في المدرستين يربو على ٣٠٠ تلميذ وتلميذة. كما اهتّم بالجمعيّات فأنشأ جمعيّة زهرة العفاف للسيّدات وأوكَلَ لها أمر العناية بمدرسة البنات، فيما انصرف هو إلى إدارة مدرسة الصّبيان، وكان يخصّص بعض ساعات من وقته لتدريس الحساب والتعليم المسيحيّ وتفسير الإنجيل في المدرستين. هذا، وعزَّز مركز قومسيون الطائفة (مجلس الرّعيّة) وجمعيّة مساعدة الفقراء، وله مواقف لا تنسى في شؤون الطائفة العموميّة. وكان، من حين إلى آخر، يُصدر كرّاساً يحوي جَردات حسابات الأوقاف والمدرسة والكنيسة والجمعيّات والتي كَان يضبطها بنفسه. إبّان الحرب العالميّة زادت

أعباء وظيفته من أشغال لدى الحكومة واهتمام بأمر العائلات المحتاجة وغيرها. ولفقيدنا مواقفُ مَشهودٌ له بها في الدّفاع عن حقوق الكنيسة وسائر الرّعايا المسيحيّة في المنطقة، وخصوصاً عندما بدأت حملة الإبادة والتّهجير والتّطهير العرقيّ في الأناضول وأسفرت عن استشهاد مئات الألوفَ من المسيحيّين من مُختَلف الكنائس. كما كان له دور فعّال في إعادة تنصيب بطريَركَ على أنطاكية محلّي من أهل البلاد، ناطقٍ بلغتها، بعد أنّ كان المطارنة، لفترة من الزمن، يونانيّين ويُنتَخَبون من قبَل كرسيّ القسطنطينيّة. وقد قاسى، في هذا السبيلَ، السِّجن مراراً والاضطهاد وتعطيل الأشغال، إذ كان من زعماء الجمعيّة التّابعة للطّائفة والتي كانت تسعى لذلك الغرض، وكانت تعقد اجتماعات سرّيّةً ليلاً في بيوت مختلفة والبوليس يطاردها بطلب من البطريرك اسبيريدون، وقد قُبض، مراراً، على أعضائها وهم مجتمعون. ولمّا كانت كلمة البطاركة نافذةً، آنذاك، لدى السّلطات العثمانيّة فقد عانى عَلَمنا، مع أفراد الجمعيّة الأرثوذكسيّة الوطنيّة الدمشقيّة، بصفته أحدَ أبرز زعمائها، الكثيرَ من المضايقات. لكنّ ذلك لم يُثنه والذين معه عن عزمهم، حتّى أثمرت أتعابُهُم تَنَحّي البَطريرك اسبيريدون وانتخابَ

مطران اللاّذقيّة ملاتيوس الدُّوماني بطريركاً أنطاكيّاً وتثبيتَه بفرمانٍ عثمانيّ سلطانيّ عام ١٨٩٩ .

ورغم فقر عَلَمنا الشّديد فقد اتَّصف، في تلك الفترة، بالكرم والحلْم والإرادة الحديديّة والحكمة والثَّبات في المواقف والعَطف على المظلوم، ولم يَنسَ لُطفَه ورعايتَه أولئك المناضلون الذين حكم عليهم ديوانُ الحرب العُرفيّ في عاليه، برئاسة جمال باشا السّفّاح، بالنَّفي إلى كيليكية في فترة سفر برلك، وكانوا من الضُّبّاط العرب من أبناء دمشق وبيروت وبغداد من مختلف الأديان. وخُتمت حياته المجيدة في ٢ آب سنة ١٩١٧ باستشهاده في حادثة سَيَرِدُ بيانُها .

مناقبه وفضائله:

قال ولده الشّهيد في الكهنة حبيب، في سرده مناقبَه: «كان رحمه اللّه، كريم الأخلاق، مضيافاً، بشَوشاً، ذا إرادة حديديّة وحكمة وثبات وانعطاف على المظلوم. من فطرته التّضحيةُ بكّل ما بإمكانه التّضحية به لمساعدة الضّعيف من أي مذهب وجنس. ولا ينسى لطفَه وعنايتَه وجهاءُ بيروت والشّام الذين كانوا، مدّةَ الحرب، منفيّين في مرسين. وكان، لا يهاب في سبيل الحقّ، مَلامةً ولا تَهمّه حظوةٌ. وإنّ إكليريكيّي الكرسيّ الأنطاكيّ كلَّهم

كانوا يعرفونه حقّ المعرفة، وكانوا يحترمون آراءه ونفوذه وإخلاصه، ويقدّرون خدماته. كان غيوراً على الدِّين والعالم، كثير المطالعة، كثيرَ الاختلاط بجميع طبقات النّاس. ينال مراده بأحسن أسلوب. يصلح بين فريقين مُتَنازعَين ويحظى بمحبّة كلَيهما. يعرف كيف يتصرّف مع كلّ إنسان حسب مداركه ومقامه. كذلك كان ذا نفوذ ومنزلة كبرى لدى أولياء الأمر وأصحاب الجاه والمراكز الرفيعة، يعرف كيف يعاملهم ويُنجز الأشغال العائدة لهم. وبالإجمال كان رجلاً اجتماعيّاً وخادماً للشّعب بكلّ معنى الكلمة».

وكان الأب نقولا، إلى ذلك، خَطيباً جريئاً وواعظاً مفوّهاً؛ وقد بقيت رعيّة دمشق تذكر مواعظه المرتجلة، في الكنيسة المريميّة، بعد استشهاده بزمان. قال عنه السّيّد أثناسيوس عطاللّه مطران حمص وتوابعها، بعد استشهاده: «أذكر طلاقةَ لسانه واسترسالَه في الوعظ والتفسير، ما كان يذكّرنا بالذهبيّ الفم».

استشهاده:

اشتُهر بطل المأساة التي سَيَردُ بيانُها المثلّث الرّحمات الخوري نقولا خشّة، أثناء تَوَلّيَه وكالةَ أبرشيّة مرسين

الأرثوذكسيّة، بالجدّ والنشاط، حتّى ازدهرت، بفضل غَيرته، أعمال الطّائفة بالعموم ومشاريعها الخيريّة، فاكتسب محبّة الجميع واعتبارهم له. فظهرت فضيلته أشدَّ نُصوعاً من الثلج، فكثر الحقودون، ولكنه وكان، في ثباته العجيب وصبره على البلاء، خير مثل لمن أراد أن يُعَدّ في مصفّ الرّجال.

ساق القَدَرُ إلى مرسين أحدَ أقسى الطُغاة وهو الكومندان بهاء الدِّين. وقد حدث أنّ الفقر دفع المدعوّ جرجي، وهو من أهالي ذلك الثَّغر، إلى الهرب من الموت الجائر إلى جزيرة قبرص. فاجتمع هناك بالخواجة أبيلاّ قنصل الإنكليز السابق في مرسين الذي زوَّده برسائلَ إلى عدّة أَشخاص، حمل جرجي الرسائل وعاد بها الى بلده. ولكن قبل أن يعمل على توزيعها، قصد جرجي فوراً منزل الخوري نقولا واستشاره بالأمر، فردعه وأخذ منه ما معه من الرّسائل وأتلفها وكَتَم الخبر. إلّا أنّ شيطان الطَّمَع غرَّ جرجي المذكور فعاد من قبرص ثانيةً مزوَّداً بالمال، فأُلقيَ القبض عليه. فاعترف، بعد أن شُدِّد عليه التّعذيب، بتجسّسه للإنكليز وبأنّ الخوري نقولا علم بمجيئه أوّلَ مرّة واستلم منه عدّة رسائل. طَربَ الكومندان بهاء الدِّين لهذه النتيجة، وحَسِبَها أفضلَ فرصة يروي بها غليل

تعصّبه الممقوت ضدّ المسيحيّين، فأَمَرَ بإحضار الخوري نقولا وبعض وجهاء الملّة إلى مركز طابور في ظاهر المدينة، ومن هناك سلَّمهم إلى هيئة تحقيق كان يُصدر إليها الأمر تلوَ الأمر بأنْ تُنزل في المتَّهمين أفظع ما يمكنَ أن يخترعه العقلُ البشريُّ من وسائل التعذيب، ليجيء قرارهم على ما يوافق رغبته من ثبات التُّهمة على الأبرياء بجرم خيانة الوطن، فينتشي هو بلذّة الانتقام. وقد مُورسَت أبشع الطرق في تعذيب الشّهيد. وإذ ضاق مُعظم المتَّهَمين ذَرْعاً باحتمال الآلام تراجعوا، وقد أرهقتهم أصواتُ الجلاّدين والتقاريرُ المزوَّرة. أمّا الخوري نقولا فلم يُثنه عن عزمه لا جوعٌ ولا ألمٌ ولم يُبال بوقع السِّياط أو قلعَ الأظافر أو تكسير الأضلاع، واحتملَ، بمنتهى الجَلَد، فظاظة حارسٍ ضخم قضى اللّيل كلَّه يرتمي بجسمه الثّقيل على صدرهِ النّحيف؛ وكان لا يجد في بلواه عزاءً إلا بتلاوة فصولٍ من الكتاب المقدّس. وقد استمرّوا، في تعذيبه، على هذهِ الحال حتّى فاضت روحه الطّاهرة تحت الضّرب المبِّرح، بعد أن كُسرت جمجمته؛ ولم يتفوّه بكلمة حتّى لا يصاب أحدٌ بسببه بأقلّ أذى. وكان ذلك في الثاني من شهر آب عام ١٩١٧.

شهادات أهل زمانّه فيه

من رسالة غبطة البطريرك الأنطاكيّ غريغوريوس الرّابع (حدّاد) الجزيل القداسة والاِحترام[1]

«إنّ من كان كوالدكم ساهراً على مَحرس النّفوس المفتداة وجاهاً في خدمة مصلحة البيعة المقدَّسة لا عجب أن يلاقي المحن والشّدائد، لا سيّما وهو يسمع رئيس الكنيسة العظيم يخاطبه: «كن أميناً حتّى الموت فأُعطيَك إكليل الحياة». فقد تمسَّك بالأمانة واستودع نفسَه يدَ خالقه متيقّناً أنّه ينال إكليل الحياة في مجد القدّيسين الأبديّ. ألا رَحمَه اللّه مخلِّداً اسمَه الطّيّبَ وأبقاكم، أنتم وإخوتكم، خلفاً صالحاً، وعزّى بكم فؤاد الوالدة المكرَّمة».

١٧ تشرين الثانّي سنة ١٩١٨، عن دمشق الشّام إلى مصر.

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق
غريغوريوس

---

[1] «ذكرى شهيد، مراثي قيلت في شهيد الكنيسة والوطن المثلث الرحمة الخوري نيقولا خشّة الدمشقي»، مطبعة الهلال ١٩٢٠، القاهرة – مصر. ص ١٤.

وقال السّيّد أثناسيوس (عطا الله) مطران حمص وتوابعها[٢]:

«نعمّاً أيّها العبد الصّالح الأمين، كنتَ أميناً في القليل فأقيمُك على الكثير، أُدخل إلى فرح ربّك»

لا تمرّ في مخيِّلتي صورةُ الشّهيد في الكهنة المثلّث الرّحمات الخوري نقولا خشّة حتّى أذكر، لأوّل وهلة، وقفة العبد الصّالح الأمين الذي أحسن الجهاد في مدّة تجنّده وهو ينتظر كلمة مولاه الأخيرة حُكماً له أو عليه. وهنالك، في تلك السّاعة الرّهيبة، ساعة القضاء الأخير، تبرز تلك الكلمة العذبة من الفم الإلهيّ الباشّ، تُمطر على ذلك الفؤاد، المضطرم بالحبّ والإخلاص، كوثراً منعشاً معلنةً أنّ العدل الإلهيّ قد قدَّر له خِدماته قَدْرها وهو يكافئه عمّا فعل.

أجل، إنّي أتذكّر همّته ونشاطه لدرجة يتعذَّر فيها على غيره مجاراتَه أو مسابقته في محامده.

أذكر غَيرته على الشّؤون الطائفيّة في الشّام ومرسين وغيرهما، التي تذكّرني غَيرةَ التزليفيّ المتوقّدة.

أذكر طلاقة لسانه واسترساله في الوعظ والتفسير، ما يذكّرنا بالذّهبيّ الفم.

---

٢ المرجع نفسه، ص ١٤-١٥.

أذكر عشقه المَعارفَ الأرثوذكسيّة لدرجة أنّه كان يستسهل، في سبيل الإشراف على معاهدها، صرف كلّ ما له من الوقت.

أذكر حكمته وتعقّله وحنكته وصبره ومقدرته إبّانّ المشاكل التي تَعرضُ له، حتّى لَينقاد لرأيه أشدُ المختلفين شكيمةً.

وفي الأخير، أذكر صيانته السّرّ لدرجة أنّه ضحّى نفسَه ولم يَبُح بسرّ يعلمه حرصاً على حياة أصدقائه.

أذكر كلّ ذلك فأُصعد من أعماق القلب الأسف العميق على خسارته، وأسأل لذويه من اللّه التّعزية السماويّة لاحتمال هذه التّجربة الصّعبة، وأن يُمطر جَدَثَ الفقير الكريم بوابل عفوه ورضوانه، ويصون أفراد أَسرته بعين عنايته».

وقال السّيّد جراسيموس (مَسَرّة) مطران بيروت وتوابعها[٣]:

«كان الفقيد، رحمةُ اللّه عليه، من خيرة أبناء الكنيسة الأرثوذكسيّة ومن خَدَمتها النّشيطين الّذين امتازوا بالسّيرة الحسنة، وتفوّقوا بحسن الرّعاية نحو الرعيّة التي اؤتُمنوا عليها، وتاجروا بالوزنة المعطاة لهم تجارة استحقّتَ أن يسمع لأجلها تلك النغمة الّلذيذة «أُدخل أيّها العبد الصّالح

[٣] المرجع نفسه، ص: ١٥ - ١٦

إلى فرح ربّك». ولقد عرفناه عامّيّاً فإكليريكيّ، وكان، في كلتا الحالتين، مثالاً في البرّ والصّلاح، وقدوةً في السِّيرة الفاضلة، ونموذجاً في الأعمال الحسنة، وأباً حقيقيّاً لأولاده الروحيّين الذين غذّاهم بإرشاداته النّافعة، وغرس في قلوبهم حبّ الإيمان الحقيقيّ، بما كان يتلوه عليهم من الأقوال المُصيبة سواءٌ أكان في الكنيسة أو في غيرها. وهكذا كانت حياته كلّها في جهاد إلى أن قضى نحبه تحت أشدّ الظلم وأفظع المعاملات بما لاقاه من الجَور والاستبداد، فكان موته موت استشهاد يذكره أبناء الكنيسة بالمديح ويكتبه له الباري في صحيفة الأبناء المخلصين في سفر الحياة، وهذه أكبر تعزية تغتذي بها القلوب الحزينة على فقده وتتعزّى بها على الحالة التي قضى فيها. فنسأله تعالى أنّ يضمَّه بين الأخيار والصّالحين حيث لحنُ المعيّدين الذي لا يفتر ولذّةُ مشاهدة نوره السماويّ».

وقال السيّد ألكسندروس (طحّان) مطران طرابلس وتوابعها[٤]:

«إنّ الحرب الرّهيبة التي نُكب بها العالم أجمع أَرَتنا من المصائب والويلات ما أنسانا كلّ ما رواه التاريخ قبلها من أنواع الخراب والدّمار والاضطهاد. والنّكبة التي أصيبت

[٤] المرجع نفسه، ص: ١٦ - ١٨

بها الطّائفة الأرثوذكسيّة، إكليروسُها وشعبُها، بفقد الخوري نقولا خشّة على الصّورة التي فارق بها الحياة، تستدعي حزناً وغمّاً، ولكنّها، بالوقت ذاته، مُوجبةٌ للافتخار والمباهاة بأنّنا، في عصر يتهافت فيه الناس عَلى اختراع أساليب الحياة للنّجاة من الموت وهلكَت فيه، من وراء ذلك، نفوسٌ أو هُدمَت سعادةُ كثيرين، في عصرٍ كهذا نرى صورةً مخشّعة تتجلّى فيها أمامنا نفس الخوريً نقولا خشّة تجود بجسدها الخائر القوى من تعذيب المعذِّبين وقلّة القوت لتخلّص آخرين. هذه صورة صغيرة ولكنّها كَشّافةٌ للصّورة العظيمة التي رآها العالم يوماً في الجلجلة يومَ صُلب فادي العالم لخلاص البشر وسعادتهم.

لقد ذهبت الحرب الكونيّة الفظيعة بأرواح كثيرين من النّاس من فعل السّيف أو النّار أو الجوع أو المرض، ولكن قلّما سُمع أنّ نفساً بريئة اختارت الموت طَوعاً تحت مُرّ العذاب لكيلا تقع نفوس الآخَرين في التهلكة وتخلص هي. وهذا ما فعله فقيدنا العزيز، فقيدُ الكنيسة الأنطاكيّة، وخلَّد لنفسه ولعائلته ذكراً مجيداً لا يمحوه كرور الأيّام. فرحمة اللّه عليك أيها الرّاعي الصّالح، ورحمةٌ على نفسك الطّاهرة الأبيّة الجريئة التي شرّفت، بعملها، جنسَها وخدمتَها، وخذلت عمل الجبناء الّذين لا

تأبى نفوسهم أنّ تضحّي بكلّ غالٍ ورخيصٍ في سبيل أن يستمرّوا هُم أحياءً ولو على علم حساب الأبرار والأتقياء. وإنّي، كصديق لك وشريك لك في الوطن الواحد والخدمة الواحدة، سأذكر اسمك مثالاً للرّعاة الأمناء على رعيّتهم، وأُورد ذكرك وأُحَيّي عملك كلّما ذكرتُ خدمتك في مرسين البلد الذي خدمتَ نفوس رعيّتك فيه خدمةَ الأمين ومتَّ من أجلهم موت الأبطال لتخلِّص الغير. فرحمة اللّه على نفسك، وسلامٌ عليها في كلّ صباح ومساء.

فإلى أهله الأعزّاء تعزيةُ من هو حزينٌ مثلَهم على ما خسروا وما خسرنا وتُعوزُه التّعزيةُ، كما تُعوزُهم، على مصابٍ ما يزال جديداً وإن مَضَت عليه السّنون؛ فهو كجرحٍ تفتقه ذكرى الأيّام كلّما ذُكِرت فظاعةُ المعذِّبين وصبرُ المعذَّب الشّهيد».

وقال السّيّد باسيليوس (دِبس) مطران عكّار وتوابعها[٥]:

«الابنُ الروحيّ الحبيب الشّهيد الخوري نقولا الذي قضى معظم حياته في خدمة الرعيّة الأرثوذكسيّة وتثقيفها على المبادئ القويمة يا رحمةَ اللّه عليه. عرفناه

[٥] المرجع نفسه، ص: ١٨

ورافقناه وعاشرناه واختبرناه، وكنّا، ولم نزل وسنبقى، نذكره بالدّعاء والثّناء، والآنَ نذكره بالرّحمة ثلاثاً.

نرغب لأبنائه في كلّ خير وتوفيق، وننتظر لهم مستقبلاً حسناً بمعونة الله، لأنّهم نُجَباءُ وأدباء وأبناء ذلك الشّهيد المملوء من الأمانة والغَيرة. كيف لا وقد سلّم حياته حفاظاً على حياة كثيرين من رعيّته، وقضى آخرَ دقيقة منها في خدمتها خوفاً منه على حياة أبنائها مَن شرّ أولئك الظّالمين البغاة قاتلي الأبرياء، قاتلهم الله وأهلك نفوسَهم وأجسادَهم في جهنّم.

إنّ الفاجعة بالخوري نقولا خشّة فاجعة عظيمة أصابت الطّائفة لأنّها خسرت، باستشهاده، ركناً من أركانها. أسكَنه الله مع الشّهداء والأبرار والصدّيقين، وعَوَّضَنا بسلامة أولاده، وأَرانا فيهم أثماراً يانعة في عضويّة الكنيسة الأرثوذكسيّة، مشمولين بعنايته الإلهيّة».

وقال السّيّد جرمانوس (شحادة) مطران زحلة وبعلبك وتوابعهما[٦]:

«إنّ المصيبة بوفاة قدس الحبيب بالربّ المطوَّب الذّكر شهيد الوطنيّة الخوري نقولا خشّة ليست جسيمة على

٦ المرجع نفسه، ص: ١٨ - ١٩

عائلته الكريمة فقط بل وعلى الكنيسة الأرثوذكسيّة والوطن، حتّى أنّ كلّ من عرف قدسه وسمع عن أخلاقه السّامية وحميّته وجهاده وغَيرته على الكنيسة والوطن يتألّم على فراقه بالطّريقة البربريّة التي نفّذَتها بشخصه الوَرِع تلك الدولةُ البائدةُ دولةُ الظلم والاِستبداد تركيا الفاَنّية.

كلُّ البشريّة من سُنَّتها أن تحزن على رحيل أفرادها من هذه الحياة؛ ولكنّ الفرق عظيم جدّاً بين من يفارق هذه الحياةَ بوقته المحدود له ومن يفارقها قبل الأوان كما فارقها فقيدنا حبّاً بحياة وطنه. فكهذا شاءت إرادة اللّٰه أن نفقد، بعد حين، من إكليروسنا النّشيط، في مرسين نفسها، شهيداً وطنيّاً. فنعمّاً لمن استُشهدوا وفارقوا هذه الحياة مثله، فذكرهم بالتّطويب والرّحمةَ دائم.

إنّ علاقة المحبّة والصّداقة والإخلاص بيننا وبين الفقيد، مدّةَ خدمته الطائفةَ الكريمةَ بمينة دمشقَ الشّام، تزيد فينا تأثيراً أكثرَ منها في الغَير. لَنا كلّنا أملٌ بأنّه لم يمت وموجودٌ معنا بوجود أبنائه الأعزّاء وبذكر أعماله الصّالحة. إنّه غائب بالجسد حاضرٌ دوماً بالرّوح في الكنيسة والوطن وبين محبّيه؛ وهذه أكبر تعزية وسلوىً عموميّة».

وقال السّيّد روفائيل (نمر) مطران حلب وإسكندرونة وتوابعهما[٧]:

«إنّ الفاجعة بوفاة العضو العامل في كرم المسيح، التّقيَّ الوَرِع المرحوم الخوري نَقولا خشّة، قد وقعت من قلبنا موقعَ الأسف والحزن الشّديدين لأنّه، رحمه اللّه، كان ممّن تاجروا بوزناتهم فربح أضعافاً وممّن حفظوا شرف الإنسانيّة إذ مات شهيداً بيد الجَور والظّلم يكلّله الوفاءُ وإتمام الواجب وخدمةُ الغير وسلامتهم. فذكَّرتنا أعماله هذه بجهاد الشّهداء والأبرار ووفاء من تفرَّدوا بالمبادئ الطّيّبة والأخلاق الكريمة السّامية؛ ولسوف يبقى ذكره المبرور على صفحات الدهر خير مثال لنكران الذّات وللشّرف والإخلاص. وإنّنا نضرع إلى اللّه من أجل أن يعوِّضنا بسلامة عائلته ويضمَّ نفسه الطّاهرة إلى صفوف الأبرار والصدّيقين؛ إنّه السَّميعُ المُجيب».

[٧] المرجع نفسه، ص: ٢٣ - ٢٤

إلى شهيد الحقّ والعدالة والرحمة، المطوّب الذكر قدس الأب الحكيم المرحوم الخوري نقولا خشّة النائب البطريركيّ للرّوم الأرثوذكس في مرسين رَحمه الله رحمة واسعة.

(من قِبَل السيّدة روزا توفيق إسكندر من هيليوبوليس في مصر)[٨]

«في يوم مشؤوم بلغَنا خبر استشهادكم وآلامكم المرّة أيّها الأب الكريم، فوقع علينا وقع الصاعقة.

واحسرتاه ممّا فعلت بقداستك أيدي الإثم والهمجيّة ظلماً وعدواناً. لقد كان لعملها هذا، ولا ريب، تأثير بليغ أمام اللّه تعالى الذي بإنعامه جعلكم تصبرون وتتحمّلون، من دون أقلّ شكوى، ضروب العذاب الفظيع من الوحوش الضارية التي جسرت أن ترفع أيديها الحديديّة الدنيئة على أب مبارك شفوق غيور كانت السماء الشاهدة لا تقلّ شعوراً معه وتألماً من أشكال الفظاعة وألوانها.

لقد قَدَّر اللّه لذلك العدوّ السّفاك الانكسارَ المتوالي حتّى أصبح في الحالة التي نراه فيها اليوم، شارداً تائهاً يردِّد طلب الرحمة ولا من مجيب. وهو الآن يتحمَّل استحقاقاً أضعاف ما تحمّله نوركم الكريم ظلماً

٨ المرجع نفسه، ص: ٢٥ - ٢٧

واستبداداً. إنّه لن يرى، بعد أعماله الشنيعة، إلّا ظلمة حالكة تقوده إلى حضيض مزعج مخيف. فطوباكم يا أبانا الحنون لصبركم على ما قاسيتموه. طوبى لغيرتكم وحكمتكم وتفانيكم لأجل أبنائكم والملّة والحقّ والعدالة. طوبى لرأفتكم بالقاصر والفقير. طوبى لمن كان ذا صفات كهذه قليلٍ أصحابُها بين الناس.

إنّ ذكركم الكريم وما كنتم تبذلونه من التضحية في سبيل مساعدة الضعيف لا تمحوهما الأيّام من قلب كلّ مَن عرفكم.

إنّنا نندب حظّنا لحرماننا مروءتَكُم النادرة أيّها الأب المحبّ. وحَبّذا لَو أُتيح لنا أن نحوز بركتَكم الأخيرة في تلك القفار النائية وأنتم بحالة الاستشهاد أمام اللّه العظيم! البركةَ التي لا بد من أن يكون قلبكم المتألّم منحَنا إيّاها.

نعم، لقد أسلمتم تلك الروح المقدَّسة صامتين، ولكنّ أدعيتكم تتردَّد في أعماق صدركم لكلٍّ من أبنائكم ومحبِّيكم ولعائلتكم العزيزة التي فارقتموها ليلاً صاغرين لأحكام الاستبداد باغتيالكم واختطافكم من أحضانها، تاركينها تحت نير الظالمين والجاهلين مصيرَكم ومصيرَها، فشعرتم برنّة حزنها العميق، وبذلك تضاعفت آلامكم وتضاعفت رحمة الباري فاستجاب توسّلاتِكم الحارّةَ،

فحفظ، سبحانَه وتعالى، العائلة المحبوبة ووقاها شرَّ القتلة السفّاحين. ألا دامت، بوراثتها، أعمالُكم المبرورةُ وشهامتُكم النّادرة ذكراً خالداً لشخصكم الكريم دائماً وإلى الأبد.

إنّكم، أيّها الأب المحبّ، في دار السعادة الخالدة اليوم، وهي لا تحرمكم ثمرةَ ما قاسيتموه ظلماً، فتضيء لكم نوراً شفافاً تَرَون، من خلاله، جزاء الظالمين، فتتهلَّلون لسلامة أعزّائكم وراحتهم بظلّ راية العدل. جمعَنا الله بكم في دار الخلود، ومَتَّعنا ببركاتكم المتواصلة؛ وإنّ لكم أعظَم ثواب».

من رسالة حضرة الفاضل سيرافيم أفندي كسّاب (الذي عرفه، قبل استشهاده بسنوات، في دمشق)[٩]

«إذا أنا أمسكت القلم اليوم لأكتب لك رثاءً أيّها الراحل الكريم، فإنّما أنا أرثي منك شمائل كنَّ كزنبقة الروض بياضاً وأخلاقاً كالياسمين جمالاً وعبيراً، وأدوّن لك في سجلّ التأبين ذكرى أعمال باهرة وهمّة تدكّ الجبال الراسية، وأصف منك قلباً كبيراً تجاه الحوادث الجسام، صلباً أمام زعازع الأيّام خفّاقاً أمام التعاسة البشريّة

٩ المرجع نفسه، ٢٧ – ٣٠

شعوراً عند العواطف الإنسانيّة. وهل يتاح لي ذلك كلُّه أيّها الأب الجليل؟ وما وعته الذاكرة يرجع إلى سنوات مضت إذ ذكرت منه ما لم أنسَ فقد يفوتني ما لم أعرفه منذ هجرتَ دمشق إلى مرسين، وقد ضَرَبت الهجرة حجاباً بين أعمالك وبيننا، وكثيراً ما عُملتْ في الخفَاء، حتّى فاجأنا نعيُك على تلك الهائلة الشريفة وقد أردَتك المنونُ جزاءَ مروءتك، وأطبقت على جسمك الضعيف أبواب الثرى، وأبطلت منك مظاهرَ الحياة جدرانُ القبر، كلُّ ذلك جعالةَ شهامتك. أليست نفسُ الحُرّ جانيةً عليه وقَدَمُ الجريء مظنّةَ الزلل! وما عَهدنا في الدنيا مكافأةَ المخلص وقصاصَ الخائن، وهي مَلأى بالأسرار وقد أعيَا الفيلسوفَ حلُّ رموزها. أيجازي مُنكرَ النفس بالموت ومُقيلَ عثرات الظالع بخنق أنفاسه؟ ويكَافَأ قاتلُ النفوس بطيّبات الحياة ومخرِّبُ البيوت بخيرات الوجود؟ تلك عبرة الحياة الكبرى وحكمة الله في خلقة أناس تَتعَس وأناس تَسعَد، ولا سبب ظاهراً لذلك والفلك دوّار، والسّنونَ والأجيالُ تَمرّ وحكمةُ الله محجوبةٌ عن البشر بحُجُب الغيب وقَيد الحياة! لا أقصد، بكلمتي هذه، أن أتناول ترجمةَ حياته كلِّها، فغيري أحقّ وأقدر منّي عليه، خصوصاً في تلك السنوات التي قضاها في مرسين؛ ولكنّي قصدت أن أعبّر عن صفات أب فاضل ومحبّ للخير أكسبَته أخلاقُه محبّة الجميع.

عرفتُ الفقيد منذ وعيت على الحياة، وعرفت أعماله منذ انتظمت عضواً في سلك جمعيّة القدّيس يوحنّا الدمشقيّ الأرثوذكسيّة في دمشق وكان رئيسَها الفعّال وإمامَها المقدام وروحَها التي لا تنام، يُدبّر شؤونها يسعى إلى نجاحها، يَعظ في اجتماعاتها، يهتمّ بمكتبتها، يُشفق بمدرستها الليليّة المجّانيّة. عرفته نقيّاً تقيّاً غيرَ متعصِّبَ، وَرِعاً عاملاً مخلصاً سبّاقاً إلى المَكرُمات، واعظاً مؤثِّراً وخَطيباً متدفّقَ اللسان، عذب المنطق، ظريف العشرة، بشوش الوجه، ولكنّه عصبيّ المزاج لا يحتمل إساءة المُسيء ولا ذبذبة المتلوّن، فكان يقول للمُحسن أحسنتَ وللمسيء أسأتَ غير هيّاب ولا وَجِل. وهذه منَ أخلاق ذوي النفوس الكبيرة، صفاتٌ ذاتُ أخطار على حاملها اليوم لأنّ العالم لم يصل إلى درجة احتمالها بعد، ما دامت الرذيلة ما تزال منتصرة على الفضيلة. وقد كانت له اليد الطُولى في إنقاذ الكرسيّ البطريركيّ الأنطاكيّ من السلطة اليونانيّة، فقاسى في سبيل ذلك السِّجنَ والاضطهادَ وتعطيل مصالحه وأعماله، حتّى ظفرت نفسه، أخيراً، بسرورها حين رأى نجاح تلك الحركة التي ظلّت شغلَه الشاغلَ سنواتٍ عديدة.

أمّا حياته البيتيّة فكانت مثالاً يُحتَذى، وكفى بأنجاله الكرام برهاناً ساطعاً على سُموّ تلك الأخلاق العالية التي كان يبثُّها فيهم على الدوام.

وآخرُ مرّة شاهدتُه فيها كانت في أوائل الحرب العظمى، إذ أتى مصرَ فزارني في منزلي، فسُررتُ بمرآه بعد غياب سنوات عديدة، وكانت السِّنونَ قد تَركت شيئاً من آثارها على وجهه ومنكبيه، ولكنّ همّته الشَّمّاءَ لم تكن قد وَنَت بعد، فقد رأيت فيه تلك الحركةَ الدائمة التي عرفتُها فيه وأنا، بعدُ، طفل صغير.

فهل أيّها الراحل الكريم، وقد صرتَ إلى عالم الأبديّة وتجرَّدت نفسُك من شوائب المادّة وخلصت من أدران الدنيا، توحي إلى نفوسنا ما تَشعُّ به من السعادة الأبديّة لتشدِّد قوانا على تحدّيك ووضعِ مثالك أمام عيوننا، حتّى نقوى على اجتياز المخاضة الملأى بالأخطار؟! وهل لك أن تزورَ طيفاً أولئك المستغرقين بحبّ المادّة وتَعظَهم كما كنت تَعظُنا في حياتك أنّ المادّة لا تغني عن الروح وأنّ مملكة الروح يجب أن تسود على مملكة المادّة في عالمنا هذا كما هي سائدة في عالمك؟ ولربّما عظاتُك في المنام أبلغُ منها في اليقظة وكلامُك غَيرُ الملفوظَ بكلمات تُسمع أوقَعُ في النفوس من كلامك المسموع! يا راثيَ فَريدٍ في حياتكَ اقرأه السلامَ بعد مماتك، فقد صرتُما إلى عالم الخلود والسكون والسلام!».

الكاهن الشهيد[١٠]

(جريدة الحوادث في طرابلس الشام عدد ٢٨٩ تاريخ ٣ كانون الثاني سنة ١٩١٩)

« ...كان استشهاد الأب نقولا صعباً جدّاً على رؤساء الطّائفة وأبنائها، إذ فُجعوا بموت فقيدهم على تلك الصورة المؤلمة، وهم يخشَون إظهار الأسف والتوجّع والقيام بواجب وداعه الأخير وإكرامه، فضلاً عن طلب العدل ممّن أنزل البلاء. وارَحمتاه للفقيد الشّهيد، فإنّه كان مصدر خير، حيّاً وبعد استشهاده. فإنّ موته على هذه الصورة الشّنيعة الفظيعة أرهب هيئة التحقيق فخفَّفت شيئاً من سوء معاملتها لباقي المتَّهَمين. وكان من غرائب العذابات أنّها بَرّحت بأسهام المتَّهمين فأُصيبوا بالأمراض العُضالة، حتّى اضطُرّ الجلاّدون إلى طلب طبيب تظاهراً بالشّفقة وحبّ الإنصاف. حَضَر الدكتور الفاضل رمزي أفندي الزّيني، فلمّا فَحصهم تقطَّع قلبه حزناً على ما صاروا إليه من شدّة الأوصاب، فأمر بإحسان معاملتهم والتوقّف عن استنطاقهم إلى أنّ يستعيدوا بعض العافية، كما أمر بأن تبقى نوافذ سجنهم محكمة السدّة منعاً لغلغلة سموم البرد القارس في أجسامهم الضّعيفة، وهو من أكبر الأسباب لإساءة حالهم

[١٠] المرجع نفسه، ص: ٨ - ١٣

واستفحال أمراضهم. غير أنّ تلك الزُمرة قهقهت من هذه العاطفة الإنسانيّة واستدعت طبيباً دجّالاً من زملائها لم يخجل من أن يشير على الجلاّدين بتشديد الخناق على هؤلاء المجرمين، وإجبارهم على الإقرار بطريقة إبليسيّة، أي بوضع البيض تحت آباطهم بعد رفعه من الماء الغالي وهو في أشدّ حرارته. وبعد أنّ أتمّ بهاء الدّين تحقيقاته على ما يروم، عيَّن هيئة التّحقيق ذاتها للحكم، وكان يجبرها على الشُروع في عملها بعد أن يعاطيها كؤوس المدام إلى السّاعة الثالثة تخديراً لصوت ضمائرها، فأصدرت حكمها الغريب بالإعدام على اثنين وعشرين رجلاً من هؤلاء الأبرياء، وأرسلت هذا الحكم إلى دمشق فكُسر هناك، إذ لا يجوز لهيئة ما الحكم في دعوى تولَّت التحقيق فيها. أمّا بهاء الدّين فما ارعوى، ولبث يُنزل بأولئك المساكين ما شاء من ضروب الانتقام حتّى قضى الله بالفرج.

إنّنا لا نستطيع أن نصوِّر جميع مشاهد هذه المأساة، فقد عُرفت، غيرَ مرّة، من رواة عديدين اتّفقوا كلُهم في روايتها على ما قدَّمنا، وكنّا، كلّما سمعناها مرّة بعد مرّة، نشعر أنّ أعصابنا تهتزّ وتنتفض تأثُراً وانفعالاً وقلبنا ينكمش ألماً وتوجُعاً. فهل ينال هؤلاء المجرمون نصيبهم من العقاب العادل تعزيةً للمصابين؟

غداً سيقول مطالعو تاريخ الشّعب الذي عانى أمثال هذه المظالم، واحتمل القسوة صابراً ساكتاً، إنّ هذه البقاعَ أنبتت شعباً لا يفوقه شعبٌ في حبّ السّلام، ولا أطوَعَ منه للأحكام، ولا أصدَقَ منه وطنيّةً وأقلَّ خيانة. ولو أنّ مَظلمةً واحدةً من مظالم الحكومة البائدة نَزَلَت على غير هذا الشعب لزلزل الأرض تحت أقدام أولئك المستبدّين ودفعهم، بتيّار غضبه، إلى مَهواة العدم والفناء».

كلمة في مصرع الكاهن الشّهيد نقولا خشّة[11]:

(جريدة الحوادث بطرابلس الشّام عدد ٣٤٣ تاريخ ٢٢ تمّوز ١٩١٩)

لم يبقَ فرد يختلج صدره بعاطفة الشّعور الإنسانيّ وسمع بفاجعة الكاهن الجديد المرحوم نقولا خشّة وقرأ فصولها المحزنة إلّا وبكى ذلك الذبيحَ الذي آثر الموت على خرق حرمة الواجب، فابتسم لطعنة الجلاّد ابتسامة معلّمه العظيم لوخزات حراب المعذّبين.

ذلك المجاهدُ، الذي لم تقوَ ضروب الإرهاب ووسائل التعذيب على تغيير عزمه الحديديّ في سبيل افتداء المئات من أبنائه، فَعَنا لأحكام السياط وصَبَر على مضض

[11] المرجع نفسه، ص: ٣٣ - ٣٤

الجوع والبرد والّلكم والرّفس والشّتم في زوايا سجنه المظلم الذي فاق، بفضل العامل التَّتَريّ «بهاء الدّين» على غرف الباستيل وسجون العصور المظلمة، ذلك المُجاهدُ مات ميتة الشّهداء بعد أن قضى حياةً ملؤُها البرُّ والجدّ والعملَ، وكان مثال الأب الصّالح في تدبير شؤون رعيَّته ونشر ألوية الوفاق والسّلام بين أفرادها، وعاملاً أميناً في خدمة الله والفضائل الإنسانيّة وإنشاء المشاريع الطائفيّة المختلفة شأنَ كلّ إكليريكيّ فاضل يعرف كيف يستلُّ من الدِّين سلاحاً لمكافحة ويلات الحياة وتوفير أسباب السّعادة والرّفاه لأبنائه. بذا قضت سنّة الشّارع وعلى هذا فليَجر رجال الدِّين إن كانوا لله يرقبون. وأعظم دليل على فضلِ هذا الكاهن الشّهيد إجماع الكلّ على محبّته وتقدير فضله، وهو ذلك الرّئيس الذي تُرغمُهُ ظروفه القاهرة أحياناً على إرضاء فريق من أبنائه وإغَضاب آخرَ. فسلام عليك يا شهيد الدِّين والمبدأ والواجب. لقد عشت عيشةَ العاملين الأبرار ومُتَّ ميتةَ الشُهداء الأخيار؛ فذكرِ هذه الشّهادة لا يمحوه كرورِ الأدهار.

فعليك دمعتنا وإلى كرام آلك وذويك تعزيتنا أن كان لهم ثَمَّةَ سبيلٌ إلى العزاء على فقدك. كما أنّنا نرفع تعزيتَنا إلى قمر الكنيسة الأنطاكيّة السّاطع وإمامها العلاّمة

الكبير «غريغوريوس الرّابع» على خسارته جوهرةَ روحك العالية وفقدانّه فيك خادماً للبيعة نشيطاً يموت في سبيل الفضيلة لتحيا، ويؤثر دار البقاء على هذه الدّنيا، وما مثلُك يا صريعَ التُّركِ بكثير!

من رسالة المعلّم حنّا ياسمين في مرسين[١٢]:

«ولمّا حضر إلى مرسين كانت فاتحة أعماله إصلاحَ بناء الكنيسة السوريّة للرّوم الأرثوذكس، فشمَّر عن ساعد لا يعرف الكلل، وبنفسٍ انفطرت على عمل البرّ والإصلاحِ ابتدأ بجمع الإحسانٍ مَن الطائفة، حتّى أنّه كان بنفسه يساعد الفَعَلة ولا يألو جهداً بتنشيطهم، إلى أن أتمّ مشروع إصلاح الكنيسة كما يجب، وبنى مقبرة صغيرة بداخل الكنيسة خُصِّصت لدفن الآباء الروحيِّين، ونقل إليها جثمان المرحوم الخوري ميخائيل مطر. وباشر، بعد ذلك، بإصلاح الأوقاف وتنظيم شؤونها. وما فرغ من تنظيم الكنيسة وغيرها حتّى أنشأ مدرسة للذّكور والإناث، وبوقت قصير أتمَّ ما يلزمها وانتقى لها من المعلّمين والمعلّمات مَن فيهم الكفاءة والمقدرة، ثمّ افتتحها ونسَّب إليها عدداً كبيراً من التلاميذ ذكوراً وإناثاً؛ ولم يكن يميِّز بين أبناء الطّوائف المختلفة، بل كان يقبل فيها

[١٢] المرجع نفسه، ص: ٣٥ – ٣٧

طَلَبةً من جميع المذاهب، وهذا دليل كبير على محبّته للعلم ورغبته في نشره بين جميع الطّبقات. وقد خصّص من وقته ساعتين في اليوم لتعليم الدّيانة المسيحيّة والحساب، وكان يفسّر للتّلاميذ فصولاً مهمّة من الإنجيل الشّريف.

شجاعته الفطريّة

رأيتُه، وكنت بمعيّته، أيّام المذبحة في ولاية أَضَنة، فكان يطوف، ليلَ نهار، في شوارع مرسين مسكّناً قلق الأهالي. ولقد دعاني، أكثر من مرّة، إلى أن أطوف معه لهذا الغرض. ومرّةً، أثناء طوافه عند منتصف اللّيل، صادف المتصرّفَ صديقَه، فسأله هذا إلى أين كان ذاهباً، فأجابه: إنَّ عينَيَّ لا تعرفان لذّة المنام قبل أن أرى أولادي وأضمن راحتهم؛ فشكره المتصرّف وأُعجب بهمّته وغَيرته.

إحسانه

كان يحسن إلى كلّ إنسان، لا فرق عنده من أيّة ملَّة هو. وإنّي أذكر واقعة شهدتُها بنفسي: أتاه يوماً رجلٌ يدعى رشيد من أبناء اللاّذقيّة من إخواننا المسلمين المستوطنين مرسين. فشكا إليه ما بهم من الآلام والأسقام وأنّه حضر من الشّام مأذوناً ثلاثة أشهر. ولمّا انتهت المدّة اضطُرَّ مُرغَماً أن يزيد عليها تسعة أشهر قضاها هو وعيلته بالمرض والفاقة. وإذ خاف عاقبة الأمر طلب من

صاحب التّرجمة تحريراً للقائد بالتّوصية وشرح عذره عن التّأخُر مدّة التسعة أشهر، فاستجاب لطلبه، مع أنّه لا يعرف القائد ولا سمع به، ولكنّ عمله هذا دليلٌ من جملة الأدلّة على شدّة محبّته للإحسان. وكان ما أراد، وحصل الجنديّ على الرّخصة اللاّزمة لتبرير تأخّره. وللأب نقولا من الأيادي البيضاء ما يفوق الحصر؛ فكم من عائلة خلّصها من أنياب الجوع والفقر في زمن الحرب، وكم من مظلوم أزال عنه الكَرب.

أخلاقه

كان ليّن الجانب بشوش الوجه، الجميع يحبّونه ويحبّهم. وكان يقابل الكبير والصّغير بالاحترام عينه والتّواضع عينه، حتّى لترى منه عجباً، ويواسَي مَن أخنى عليهم الدهر بما يجبر خواطرهم ويساعدهم على قضاء مطالبهم، ولا يخيّب قاصداً قصده. لم تكن مبّراته حكراً على طائفة دون سواها، فكلّ النّاس لديه سَواء مهما اختلفت مذاهبهم وتباعدت مواطنهم. وكان كلّ من رآه يحبّه ويحب معرفته. وكثيراً ما كنت أصحبه لإنجاز بعض الأشغال فَأَعجَبُ من كثرة توقفه في الطّريق مع من يصادفهم من الأهالي من جميع الطّبقات. وقُصارى الكلام أنّه كان إنساناً بكلّ معنى الكلمة ورجلاً حَوى في

شخصه خصال الرّجولة. ولو أخذتُ في تعداد مآثره لضاقت عنها بطون الدفاتر. وما زال صاحب التّرجمة يُرينا من أعماله الحسان حتّى لبّى نداء الحقّ وذهب ضحيّة الغدر والعدوان. فلتَبكه الإنسانيّة والمروءة، فقد كان لهما نصيراً. وحزني عليه لَا يزول ما دمت حيّاً».

«مات مَن ذِكرُه لن يموت»

(بقلم «فتاة مرسين» التي كانت تلميذة في المدرسة التي أنشأها الأب نقولا في مرسين)[١٣]

«ماتَ لا كما يموتُ سواه، وذهبَ لمُلاقاة ربّه وهو يتمّمُ الصّلاةَ من أجل خلاصِ شعبه والوطن معاً. قدّم روحه فداءً عن الغير بعدما أنّهكوا قُوَاه بعذابات لم تمرَّ برأس أحد إلّا برؤوس الأتراك الجهنّميّة وهو يُقابلُ كلّ شيءٍ بصبرٍ لا مثلَهُ صَبُر. وعلَى مذبحِ الاستشهاد أخيراً أسلمَ الرّوحَ في سَبيل اللّه وخير أبنائه وأمانَته للوطَن.

أبٌ وفّى الأبوّةَ حقَّها، وعليه ينوحُ الآباءُ ويبكيه الأبناءُ، وروحٌ عزيزةٌ تسعى في سبيلِ العُلى ورفعِ منارِ العلم، فخسرناهُ وخسارتنا به عظيمةٌ لا تُردّ. عَرَفتُه وعرفتُ فيه خير ما يُقال في أبٍ وُجِد على وجه البسيطة.

[١٣] المرجع نفسه، ص: ٣٨ – ٤٠

كانَ لمرسينَ راعياً أميناً، وأبناؤُها يرفعون رؤوسهم افتخاراً بأبيهم الرّوحيّ الّذي نال أرفعَ منزلة في القلوب وإليه يعودون في كلّ مسائلهم الرّوحيّة، وحتّى الأدبيّةَ أيضاً. أتى مرسين رجلُ اللّه الحقيقيّ، فلم تنقض على وجوده فيها مدّةٌ قصيرةٌ حتّى أسّسَ فيها جمعيّةَ زهرة العفاف للسّيّدات غايتُها تهذيبُ الأحداث في مدرسةَ وطنيّة. ففازت بغايتها - وأيَّ فَوز - فدخلها الذكورُ والإناثُ. ولم ينقض وقتٌ قصيرٌ حتّى سارت في طريق الرّقيّ والنّجاح فأصبحت تُضاهي بعلمها أحسنَ مدرسة ابتدائيّة للأجانب. وكان الكلّ مُعجَبين بصاحب القلبً الكبير المُثلّث الرّحمات الأب الشّهيد الخوري نقولا خشّه رئيس الجمعيّة ومدير المدرسة بآن.

لم تنحصر أعمالهُ في خدمة بيعة اللّه وتأسيس المدرسة فقط، بل كان عاملاً حقيقيّاً في كلّ خدماته الجليلة التي أُسطِّر القليل منها بملخَّص العبارة، لا لأنّها لا تستحقّ الذّكر بل، بالعكس، لأنّي أشعر بقصوري عن ذلك، تاركةً المجالَ لمن لهم المقدرة الكافية على تدوين مآثره الغرّاء.

في الصّباح باكراً، حينما كنت أذهب إلى المدرسة، كنت أجده وراء مكتبه يكتب حتّى الغروب، واصلاً ليله مع نهاره،

حارقاً نفسَه كالشّمعة كي يضيء طريق الظّلمة لتهذيب الأحداث تهذيباً حقيقيّاً، غارساً في عقولهم معنى العلم ومنزلته الرفيعة. وهنا أذكر عبارة لا أنّساها ما حييت، حين وقف واعظاً أبناءَ المدرسة وبناتها أثناء الامتحان السّنويّ، قال:

«أنّتن صغيراتُ اليوم وصبيّات الغد وأُمّهات المستقبل. عليكنَّ يعلّق الوطنُ الآمال. فكما أنّ الشّبيبة هم زهرة الوطن وحُماتُه فأنتنّ روحُ هذا الوطن العزيز ومَحَطُّ آمال الشيوخ فيه ذوي النّظر البعيد»

كانت للأب نقولا همّةٌ لا تعرف الملل وحكمةٌ نادرةٌ كانت موضوعَ حديث الكبار والصِّغار وموضعَ ثقتهم. وهو أبٌ للفقير حنون وأخٌ للغنيّ مخلصٌ يُرشده إلى عمل الدِّراية منزَّهاً عن الغايات ويذكّره، دَومَا، بأخيه البائس المسكين. ولقد كان، رَحمه، اللّه يخصِّص ساعتين من وقته الثمين نهار كلّ خميسَ لأجل تعليم أبناء المدرسة التعليمَ المسيحيّ. كذلك كان يمتحن مقدرة التلاميذ مرّتين في السّنة، بوجود الفريقين من المعلّمين والمعلّمات، في التّمثيل الأدبيّ وإلقاء الخطابات وإنشادِ الأنّاشيد، ويُعطي الجوائز لكلّ مستحقّ.

وثَمَّةَ مسائلُ كثيرة كُانت تُطرح عليه فيجاوب كلَّ

إنسان بلا أدنى تردّد، داعماً قولَه بقوّة البرهان، والجميعُ إلى نصائحه وكلامه متعطّشون. مرّات كثيرةً كنت أحمل إليه أسئلةً من المدرسة الأجنبيّة التي كنتُ أذهب إليها؛ وبصفتي تلميذةً أدرس في كلّ من المدرستين في النّهار الواحد كنتُ أحمل الإجابات، في اليوم التالي، لمن هم بانتظاره، والكلّ معجبون بمقدرته.

هو ربّ الخَطابة وأميرٌ من أمراء المنابر، إن اعتلى منبراً شَخصَت الأبصار نحوه والكلّ آذانٌ صاغية. كَثيرون من أبناء الطّوائف الأخرى كانوا يدخلون الكنيسة لسَماع دُرَرِ كلامه وعظاته البليغة.

هو أبٌ مجاهد يعُزُّ وجود من يماثله؛ والموت نقّاد يختار أخيارَ النّاس من دون تردّد وبلا رحمة. فيا روحَ شهيدنا العظيم يَحقُّ لك، بعد عنائك الطّويل، أن ترتاحي في الأخدار السماويّة في حضن أبينا إبراهيم. وأمّا ذكرك فسيبقى خالداً على مدى الأيّام».

بقلم ميشال سعد من دمشق الشام[١٤]:

«أجل، لقد نضب المداد وجفَّ القلم، ولَولا حرقةٌ في الصّدر لما ذابت محاجرُ أجرت دمعها يستمدّ منه اليراع مَداداً.

١٤ المرجع نفسه، ص: ٤٠ - ٤١

إنّ عاطفة النّفس تثور ونار الأسى تُلهب الأحشاء والذّكرى تُهيج حزناً كامناً على أبٍ صالحٍ غيورٍ ضحَّته يد الظّالمين استَبداداً.

غَفَر اللّه لهم لأنّهم لا يدرون ما يفعلون. فتكوا بالفضل والمروءة، انتقموا من الطُّهر والكمال، تطاول اللئيم إلى ناصية الكرم وأحدق الزَّنيم ببياض جبهة الفضيلة. كان النُّصح لينفَعَهُم لَو أنّ فيهم قلوباً، ولكنّ قلوبهم أصبحت جماداً.

ألقَوا القبض عليه؛ ألقَوه في غياهب السّجون بعيداً عن محبّيه، بعيداً عن بنيه، بعيداً عن الحنان والرّحمة. ظنُّوا شهامتَه لؤماً وطهرَه دنساً وصبرَه كَظماً وإيمانَه كفراً؛ أعماهم الظّلمُ والفجور. رَحِمَ اللّه من ذَرّ في عيونهم رماداً.

أجل، أبت الغيورَ، إنّ روحك الطّاهرة رحلت إلى عالم اللاّنهاية ترفرَف في مراتع جبريل حيث مقرُّ المُتَّقين وتعزيةُ مَن قضى استشهاداً.

نبكيك بكاءَ عاجزٍ عَدمَ نصيراً وأخٍ عَدِمَ أخاً وبنينَ خسروا أباً وأمٍّ فقدت أولاداً.

يبكيك الفضل والأدب؛ تبكيك الشّهامة والنُّبل؛ يبكيك

الطُهر والفضيلة؛ تبكيك رعيّتك وبنوك؛ يبكيك كلُّ مَن عَرفك. كنتَ للحزين مواسياً، وللسّقيم مداوياً، وللفقير محسناً، وللفضيلة صائناً، ولأبنائك مُرشداً، ولرعيّتك عماداً.

رَحمَك اللّه بهمّتك المشكورة وأعمالك المبرورة وغَيرتك المشهورَة ومعارفك العالية. بَرّد اللّه ضريحك وثراك وجعل الجِنانَ مثواك. إنّما جعل اللّه السّماء للصّالحين مَعاداً.

أَطلَّ علينا، أيّها الأب الحنون، من مَقرّك الرّفيع من أحضانَ إبراهيم، وارمُق بطَرْفك أرض الظّالمين وقد سلَّط اللّه عليهم كلّ جبّار، وشتَّتهم في الأقطار الأربعة، وآلَ ملكُهم للبَوار، وكُتب على جباههم بيدٍ من نار: هذا جزاء الحاكمين استبداداً».

الأب الشّهيد الخوري نقولا خشّه نائب البطريرك في مرسين وراعي الطّائفة الأرثوذكسيّة فيها[١٥]:

(مقالة كتبتها الآنسة أديبة، وهي إحدى خريجات المدرسة في مرسين، في جريدة «المرآة الغرّاء» - نيويورك، عدد الأربعاء في ٨ كانون الثّاني سنة ١٩١٩)

«منذ عهد غير بعيد نشرت المرآة الغرّاء خبر قتل الأب الجليل الخوري نقولا خشّه بيد حكومة الأتراك

١٥ المرجع نفسه، ص: ٤٢ - ٤٥

الظّالمين. طالعتُ الخبر وأنّا لا أصدّق ما أقرأ ولا أريد أنّ أصدّقه لأنّه - والحقُّ يقال - نبأ هائل وخسارة جسيمة فادحة على أبنائه الروحيّين عموماً والكرسيّ الأنطاكيّ خصوصاً. الأب الشّهيد نقولا خشّه من دمشق الشّام رُسم كاهناً على مرسين وكان لها خيَر أب. بأمثاله مرسين تُفاخر، وعليه أبناؤها يذرفون الدّموع ويحفظون له ذكراً خالداً مطبوعاً على صفحات القلوب.

لا شكّ في أنّ كلّ من عرفه أو سمع بصيته العطر حَسبَ له هذه النتيجة السّيّئة، والخسارةَ به التي لا تُرَدَ...؛ وما ذنبه كان سوى أنّه أبٌ عالمٌ ساهرٌ على خير رعيّته سهَرَ الأمّ على طفلها. هو المحامي عن الطّائفة كلّها، والشّبّان خصوصاً، من اعتداء الحكومة؛ فكم وكم من مرّة حماهم في منزله متحَمّلاً المسؤوليّة، وذهب يدافع عنهم دفاع الأسد في دار الحكومة الظّالمة مُخاطراً بنفسه فلا يعود إلّا وإكليل النّصر معقود فوق رأسه بفضل جرأته الأدبيّة وبراعته المشهورة وحماية روسيا.

وممّا يُذكَر من مآثره الكثيرة الفخر والثناء حادثةُ فتاة مسيحيّة اختطفها الجراكسة مَن بيتَ أبيها في الجبال، فكانوا يأخذونها من قرية إلى أخرى ومن محلّ إلى آخر، إلى أن وصلوا بها إلى مرسين، ووالدها الحزين يتبعهم

قصد تخليص ابنته، وهو عاجز عن ذلك. فذهب والدها إلى الأب الشّهيد نقولا خشّة وقصَّ عليه حكاية ابنته. في الحال شمَّر عن ساعد الجدّ شأنّه في كلّ حادثة، وأعلم قنصل روسيا بالأمر. فما كان من خاطفي الفتاة سوى الهرب إلى أَضنَة فجدّ في إثرهم إلى دار الولاية في أضنَة وطالَب الوالي بالفتاة المسيحيّة، فأجابه أنّ الفتاة تطلب اعتناق دين الإسلام وأَنْ لا حقّ له بالاعتراض، بل عليه أن يكون كشاهد على الفتاة. وزاد على ذلك، متهكِّماً، أنّ الفتاة ستقول ذلك أمامك، فاسمع! فدخلت، عندئذ، الفتاة وهي ترتجف خوفاً، فنظر إليها مخاطباً الوالي بكلّ جرأة: إنّ التعاليم المسيحيّة لا تنطبق على هذه الشّهادة، فعليك أن تُرجع الفتاة إلى منزلي كي تبقى عندي ثلاثة أيّام، وبعدها نستَجوبُها. فقال الوالي بغضب: «أنتم، الآباءَ الروحيّين، دائماً تَتدخّلون بمسائل الحكومة التي لا تعنيكم». فأجابه الخوري بقوله: « نقول: إرفعوا الظّلم لا نتدخّل».

قال ذلك غيرَ هيّابٍ ولا وَجِل في وسط مدينة المذابح المشهورة التي فيها قتلَ عشراتَ الألوف من المسيحيّين في عام ١٩٠٨، ثم قفل راجعاً إلى مركزه. وبعد بضعة أيّام كانت الفتاة حرّة في الدّيار المصريّة بفضل الأب خشّة وروسيا ومَسعاهما.

إنّي أشعر بعجزي وقصوري عن تدوين مآثره الغرّاء، لكنّ صوت ضميري أبى أن يسكت عن مصدر الفضل، ولو بتدوين القليل من مآثره الكثيرة. به مرسين كانت تعتزّ، وإليه يُنسَب فضل ازدهار جمعيّاتها ومدرستها الوطنيّة التي سارت في سبيل الرّقيّ والنّجاح فأصبحت كمدارس الأجانب الابتدائيّة لا يقلّ عدد تلاميذها وتلميذاتها عن الثلاثمائة.

أقول ذلك لا عن مغالاة بل عن خبرة تحقَّقتُها بنفسي كفتاة درسَت في المدارس هناك وهنا أيضاً. والشّيء بالشَّيء يُذكر، فإنّ نجله الأكبر الجنديّ المرحوم سليم نقولا خشّه، الذي قدم إلى هذه الدّيار منذ سنوات، لبّى دعوة العمّ سام وانخرط في جيش الحرّيّة منذ أشهر. فبينما كان يتمرَّن على الأساليب العسكريّة في معسكر جاكسون جمح به الحصان فوقع تحت حوافره، وهذا الحادث أودى بحياته.

فإلى الزّوجة الأرملة والأمّ الثّكلى في ما وراءَ البحار أقدّم فروض التّعزية، وأسأل للفقيدين الشّهيدين الرّحمة».

الخوري الشّهيد في الكهنة

حبيب خشّة الدمشقي

✝ ١٦ تمّوز ١٩٤٨

تاريخُه:

وُلدَ حبيب نقولا خشّة في مدينة دمشقَ بسوريا عام ١٨٩٤، وكان البكرَ في عائلة مؤلَّفة مَن ثمانية أولاد. أبوه هو الشّهيد في الكهنة نقولاً خشّةً. تلقّى حبَيب دروسَهُ الابتدائيّةَ والثانويّةَ في مدرسة عينطورة، ثمّ تابعَ دراستهُ الجامعيّةَ في الجامعة الأمريكَية في بيروت وتخرّج منها عام ١٩١٤ حائزاً شهادَةَ بكالوريوس في الآداب.

قُبيل الحرب العالميّة الأولى انتقلَ والعائلةَ، مع النّازحين من مدينَة دمشق، إلى مدينة مرسين، حيثُ خدمَ والدُهُ ككاهن للرعيَّة الأرثوذكسيّة هناك. وفي عام ١٩١٦، إبّانَ الاضطهاد الذَي لاقاهُ المسَيحيّون في مرسين، قَتَلَ الأتراكُ والدَه بعد تعذيبه، فكَلّلَ حياته بالشّهادة للمسيح. فنزحت العائلة إلى مدينة بورسعيد في مصرَ عام ١٩١٧ حيثُ تزَوّج حبيب من وديعة توما، وهي من عائلة سوريّة انتقلت إلى مرسين، فإلى «بورسعيد» عام ١٩٢٢.

عملَ حبيب في بورسعيد محاسباً ومترجماً لدى شركة

«وورمز **WORMS**» للشّحن والتّصدير، وذلك ما بين ١٩٢٢ و١٩٢٤، ورُزق، في هذه الفترة، طفلةً سَمّاها جولييت. ثمّ انتُدبَ إلى فرع الشّركة في مدينة بيروت بلبنان عام ١٩٢٤؛ وبعد أن حصلَ على جواز سفرٍ مصريٍّ من المحافظة في شهر حزيران من ذلكَ العام، سافر مع عائلته إلى بيروت لاستلام وظيفته الجديدة في شركة «**SHELL**» الممثِّلة لشركة «**WORMS**»، واستمرّ موظَّفاً حتّى عام ١٩٣١. في هذه الفترة رُزق ثلاثة أطفال: مارسيل، فدوى ونقولا.

في كانون الثاني عام ١٩٣١ قدّم استقالته من الشركة مُزمعاً أن يدخل سلكَ الكهنوت، وانتقل، مع عائلته، من بيروتَ إلى دمشق. لكنّه اصطدم بمعارضة زوجته لرسامته فلبثَ في دمشق عاماً كاملاً، حتّى لانَ موقفُها، ثمّ رُسم كاهناً هناك، عام ١٩٣٢، في الكاتدرائيّة المريميّة بمقرّ البطريركيّة الأنطاكيّة في دمشق، حيثُ خَدم حتّى عام ١٩٣٥. تنقّل، بعد ذلك، بين بورسعيد، دمشق والقاهرة إلى عام ١٩٤٣ حين استقرّ في العاصمة السّوريّة بصورةٍ نهائيّة.

رُزق الخوري حبيب، في العامّ الأوّل من كهنوته، طفلاً سَمّاه سليم. وفي عام ١٩٣٥ تُوُفّي ابنه نقولا إثرَ مرضٍ مفاجئ، وكان في عامه الخامس. يومَها كان الأبُ حبيب

في كنيسة القدّيس نيقولاوس ببورسعيد، والعائلةُ في دمشق، فمَا إن التقَى زوجتَه عندَ حضورها إلى بور سعيد حتّى بَادرها بَالقول: «الربُّ أعطى والربُّ أخذَ فليكن اسمُ الربِّ مباركاً». بقي الأبُ حبيب وعائلتُه في بورسعيد حيثُ خدم ككاهنٍ طيلةَ عامٍ كامل، ثمّ عاد إلى دمشق، عام ١٩٣٨، حيثُ زاول خدمةَ رعيّته حتّى عام ١٩٤٠ حينَ نُقل إلى القاهرة. لبثَ الأبُ حبيبَ في القاهرة، في كنيسة رؤساء الملائكة، حتّى عام ١٩٤٣، ثمّ عاد مجدّداً إلى رعيّته في دمشق.

أُسرتهُ:

أنجبَ الأبُ حبيب خمسةَ أولاد: جولييت، مارسيل، فدوى، نقولا (الذي تُوُفّيَ، لاحقاً، إثر مرض مُفاجئ) وسليم. كانت زوجته وديعة امرأةً تقيّةً فاضلةً كرَيمةَ النفس، مُحبّةً للخير، قلّما تلقاها، في أوقات فراغها، جالسَةً إلَّا والكتابُ المقدّسُ أو كتابُ الصَّلوات في يَدها. وقد اختارها حبيب، أصلاً، بتبصُّرٍ، بعدما أَحَسّ أنها تملك ذات اللهفة والطاعة لروح الرب. كانت شريكةَ حياته وهمومه وحافظةَ أسراره؛ يُطلعُها على أحواله ومشكلاته، يتبادلَ وإيّاها الآراءَ في صَعُوباتِه. حتّى شؤونُ صلاتِه كَان

يَكشفُ لها جوانبَ منها. ومع ذلك اعترضَت عندما أبدى لها رغبتهُ في أن يصيرَ كاهناً، والسببُ كان حرصَها على الوضع المعيشيّ للأسرة، لاسيّما وأنَّ حبيب كان ناجحاً في وظيفته، محبوباً ومحترماً، وكهنةُ ذلك الزمان، كانوا، بشكلٍ عامّ، مُعوَزين. لم يشأ حبيب أن يفرضَ رأيه على زوجته فَرضاً لأنّه كان رفيقاً بها، خَفراً في تعاطيه معها، فأسلمَها إلى ربّه وانتظر. انتظرَ سنةً كاملةً رأت زوجته (وديعةُ)، في نهايتها، حلُماً غيّرت على أثره رأيها. فقد عاينت جندياً مُقبلاً صَوبها فارتعشت. نظر إليها، ثمّ أشار إلى حَنفيّة يقطُرُ منها الماءُ قَطْراً، وقال لها: «عليك، بعد اليوم، أن تكتفي بالقليل!». فلمّا أفاقَت من نومها اضطرب قلبُهاَ، وقالت: «إنّما الجنديُّ ملاكٌ من عند الرّبّ!». مذ ذَاك رَضيَت بأمر الله وسايرت زوجها، واقتَبلت، برضىً وتسليم، ما يأتي عليها وعلى عائلتها.

كان الأبُ حبيب سويّاً في حياته البيتيّة، يُجيد التَّوفيق بين التزاماته الأسريّة والتزاماته الرعائيّة. اتّسمت يوميّاتهُ، عامّةً، بالتّرتيبَ: يأكلُ مع أفراد العائلة بانتظام، إلّا متى قَضت الضّرورةَ خلافَ ذلك؛ يجلسُ مَعهم كأيِّ ربٍّ أسرة. وكأيّ ربٍّ أسرةَ يخرج بأُسرته للتَّنَزُّه ويُمازحُ الجميع. لم يسعَ البتّة إلى فَرض الأصوامَ والصَّلوات على

أحد، لكنّه كان يسأل مستفسِراً. وكان يعيش حياة زُهد وصلاةٍ وصوم.

بعد رسامته كاهناً ضاقَ وَضعُ عائلته المَعيشيُّ بعضَ الشيء، لاَ إهمالاً منه لمسؤوليّاته البيتيّة، بَل لأنّ دخلَهُ كان مُتواضعاً دُونَ احتياجات العائلة بقليل. لهذا كان يُوسفُ، أحدُ إخوته، يمدُّ الأسرةَ ببعضِ المال بانتظام.

كهنوته:

تَكَرَّسَ الأبُ حبيب للكهنوت عن دعوة إلهيّة؛ فقد كان يَهُمُّهُ أن يَسلك في خُطى أبيه (الأب نقولا)، وكان يصلّي أن تُعطى له نعمةُ الشَّهادة على غرارِ والده.

لا نعرف تفاصيلَ كثيرةً عن خدمته كاهناً. نعرف أنّه كان يذهبُ إلى القدّاس الإلهيّ صباحَ كلّ يوم، وبعد ذلك يقضي ساعتين في المطالعة في البيت، ثمّ يذهبُ في زيارات تفقّدية لأفراد الرّعية حَتّى موعد الغَداء. وبعد فترة استراحة لم تكن تتجاوزُ رُبع السّاعة، كان يُعاودُ القراءةَ حتّى حوالَى السّاعة الرّابعة عَصراً، ثمّ يستأنفُ زياراته الرّعائيَّةَ حتّى المساء. وفي عُطلة آخر الأسبوع كان دائماً يَقصد دير القدّيسة تَقلا في معلولا «سَلوكية أو سيلفكية» حيثُ يَقضي وقته مُختلياً في الصلاة والقراءة. يَترك الدّير

صباحاً، يتمشّى بين الجبال ويُصلّي حتّى المساء. في حال الضِّيق والإجهاد كان يلجأ إلى معلولا يُصلّي دقائقَ صامتاً أمام قبر القدّيسة تقلا، فيعودُ مُشرقاً بالبهجة. ولشدّة تَعَلُّقه بالشّهيدة تَقلا ارتبط اسمُه بمَعلولا. وكانَ لا يَستقبلُ الزوّار إلّا إذا أتاه أحدُهم يَطلبُ إرشاداً. كان يعرف مكنونات قلوب الآتين إليه وكأنّ كُلاً منهم كتابٌ مفتوحٌ أمامَه.

اهتمّ الأبُ حبيب بالآثار القديمة وانكبّ على دراستها، خُصوصاً ما يتعلّق منها بالأديان، وكان قد شرعَ بوضع مؤلّف عنها. ونَعرفُ عنه أنّه أحبّ رَعيّته وغارَ عليها غَيرة المسيح، وكان يتفقّدها بحرص وتواتر. وقد اشتُهرَ في رعيّته بثلاث خصال: صلاته وانضباطه وعنايَته بالفقراء.

أمّا صلاتُه فقد حَفظَ النّاسُ عنها أنّها كانت تجلّيات للأب حبيب أثناءَ الخدَمة الإلهيّة. ومن هذه التجلّيات ارتفاعُه عن الأرض أحياناً، إذ كشفت زوجته (وديعة)، بعد استشهاده، عن أنّه أخبرها بذلك مراراً. كما رَوى عن ارتفاعه عن الأرض بعضُ المصلّين في كنيسة رؤساء الملائكة بالقاهرة إذ قالوا إنّه، أثناء القدّاس الإلهيّ، كانَ أطفالٌ يُشيرون إلى الأب حبيب، وهو واقفٌ في الهيكل أمام المائدة المُقدّسة، قائلينَ لوالديهم: «أبونا طاير في الهوا».

ومن هذه التجلّيات أيضاً ما رَواه قَندلفتُ الكنيسة في القاهرة أيضاً، وهو أنّه، في أحد الأيّام، ذهب صباحاً إلى الكنيسة كعادته؛ ووقف بباب الكنيسة للدّخول، فوجد الأبَ حَبيب واقفاً في الهيكلَ يُصلّي؛ ولعلمه أنه يُطيل في صَلاته لم يَدخل الكنيسةَ، وجلسَ أمامها في انتظار انتهاء الأبَ حبيب من صلاته وخروجه من الكنيسة. وبعد فترةَ، وفيما هو جالسٌ بجانب بابَ الكنيسة، رآه ينزل من مَسكنه، الواقع مُقابلَ الكنيسة داخل حَرَمها، فوقف مُنذهلاً وَسَأله: «أبونا مُش كنتَ دلوقت بتصلّي في الكنيسة؟؟»، فقالَ لهُ الأب حبيب: «إنتَ شُفتني!؟»، وطلبَ منه قائلاً: «لا تُخبر أحداً بما رأيت إلاّ بعد موتي». وبالفعل لم يَرو القندلفت عمّا رأى إلّا بعد فترة من سَفَر الأب حبيب من القاهرة، وقد تعود هذه الفترة إلى ما بعدَ استَشهاده. أمّا عظاته فكانت بسيطةً مُختصرةً، لكنّها كانت بليغةً تَخرجُ، ليس فقط من فمه، بل من كلّ كيانه. فقد وَعَظَ في أيّار١٩٤٧، قائلاً: «الرّهبان هم الأسلاكُ التي تربطنا بالسّماء».

أَحبَّ الأبُ حبيب الفقراءَ حبّاً جَمّاً فكانت عنايتُه بهم كبيرةً على قياس حُبّه لهم. كان الفقراءُ أصدقاءَهُ بمعنى الكلمة، يجلس معهم مرِحاً، فاشتُهِر بروح النُكتة والمرح.

من بين الأصدقاء رجلٌ عجوزٌ يُدعى إبراهيم يقيم في حيّ الميدان في دمشق. كان فقيراً يسكنُ كوخاً صغيراً، وكان الأبُ حَبيب يتردّدُ إليه متبرِّكاً، إذ كان الشّخصَ الوحيدَ من بين أهل حيّ الميدان القديم الذي نجا من مَجزرة العام ١٨٦٠ في دمشق.

كان الناس يعرفون الأبَ حبيب بأنّه أبو المَبَرّات، فكانوا يُعطُونه ليُعطي المحتاجين، واثقين بأنّ مَعونتَهم تذهبُ حيثُ يَنبغي. كلُّ هذا أثار في وجهه مَتاعبَ جَمّةً من الكهنة الذين حَسدوهُ، وحاولوا زَرعَ الأَشواك في طريقه. احتجَّ مرّةً كاهنٌ لدى البطريرك الأنطاكيّ فاستدعاهما. قال الأوّل: «النّاس يدفعون له أكثرَ ممّا يدفعون لي»، أجاب الشّهيد: «إذا كان النّاس يدفعون لي، فما ذنبي؟»، وكان من المعروف عنه سخاؤُه المُطلق، إذ كان ينفق مَواردَهُ الماليّةَ على المَساكين فيُعطي للسّائلين كلَّ ما في جَيبه. وقد نَذَر أخوه يوسَف، مرّةً، مبلغاً من المال لدير مار تقلا في معلولا، فَوَشَى الوشاة بالأب حبيب للبطريرك الأنطاكيّ ألكسندروس (طحّان) زاعمين أنّه، بسبب غباوته، بدّد قسماً من المال في الانفاق على الترميمات والمشاريع، ما ضايق الأبَ حبيب. بالمقابل، أحد المصريّين ممّن عَرفوه، وكان في زيارةٍ إلى دير صيدنايا، أجابَ عن سؤالٍ في شَأنه،

وبصُورة عَفوية قال: «هذا مجنون، يُوَزِّع كلَّ فلوسه على الفقراء!».

حضر الأبُ حبيب، مرةً، اجتماعاً في الدّير برئاسة الأب ميرون زيّات لمُصالحة كاهن القرية مع الرّعيّة. كان الخلاف ماليّاً. اندفع الأبُ حبيبَ بتجرّدٍ رسولي وحماس، ليَدفع له تمام راتبه وقَدْرُه، آنذاك، عام ١٩٤٧، ١٥٠ ليرة.

كانت أعمالُ المحبّة عنده مَستورةً بأكثرها، وهذا بديهيٌ بالنسبة لرجل مثله. فقط بعضُ الأخبار عنه عُرفَ هنا وثمّة؛ من هذه الأخبارَ قصةُ الجُبّة. مَفادُ هذه القصّة أنَّ يوسف شقيق الأب حبيبَ أرسل إليه مرّة جبّةً جديدةً، فلبسها وذهب إلى البطريركيّة بدمشق. هناك التقاه غبطة البطريرك فسأله: «ما هذه الجُبّة الأنيقة؟»، فأجاب: أخي يوسف بعثها لي من مصر؛ فسأله البطريرك: «ماذا فعلت بجبّتك العتيقة؟»، أجاب: «تركتُها في البيت». حسَناً (قال له البطريرك) سوف أُرسل إليك خوري حوران فأعطه إيّاها. فردَّ عليه: «حسَناً، كما تريد سيّدنا». فلمّا حضرَ إليه خوري حوران أعطاهُ الجُبّة، ولكن لا جُبّتَه العتيقةَ بلِ الجديدة!.

وفي هذا السِّياق خَبَّرَت عائلته بأنّ امرأةً مُحتاجةً دقّت بابَه مرّة، وطلبت طعاماً لنفسها ولعائلتها، فاستدار بصورةٍ

تلقائيّة، واتّجهَ صوبَ المطبخ، وتطلّع فرأى وعاءً فيه طبخةٌ من المحشيّ الملفوف، فرفعها وخرج بها ودفعها للمرأة.

ومن القصص عن عطائه أنّه، في أحد الأيام من شهر آب، صادفه شخصٌ بارزٌ في الطائفة في كنيسة رؤساء الملائكة بالقاهرة يدعى متري بشارة في ميدان باب اللّوق، وكان الأبُ حبيب سائراً على قدميه بينما متري بسيّارته. وكان أسفلتُ الشارع يذوب من شدّة الحرّ فناداه متري: «شو أبونا؟» فأجاب بأنّه عائدٌ إلى منزله بالظّاهر، والمسافةُ حتّى الظّاهر تُقدَّر بـ٥ كم، وكان قد أعطى ما تبقّى في جيبه لأحد المتسوّلين، ولم يبقَ أمامهُ إلّا خيارٌ واحدٌ هو العودة إلى المنزل سيراً على القَدَمَين.

إلى ذلك خُبّرَ عن الأب حبيب أنّه كان يَستدين الكثيرَ من المال مُقابلَ سَندات دَفعٍ لأجَلٍ قريب، ليَقومَ بتجهيز ابنة أرثوذكسيّة مقطوعةَ من الأهل، لاسيَّما إذا حام حولها أحدٌ من غير دينها، ثمّ يقوم بزفّها إلى شابٍّ أرثوذكسيّ.

وثَمَّةَ شهاداتٌ أخرى أفادت أنّ أفراد عائلته وجدوا، بعد استشهاده، دفترَ حسابات تُشير إلى ديونه مع أسماء الدائنين؛ وعندما قصدت العائلة هؤلاء لتسديد الدُيون، تبيّن أنّ هذه مبالغَ أُعطيت الأبَ حبيب لمساعدة الفقراء. بالنّسبة إليه كانت ديوناً!

وقد كان حريصاً على مواصلة رعاية أبناء الطائفة، لا يَترك مَريضاً إلّا ويزورُه. فكانَ يَتنقَّل سَائراً علَى قدميه من الصّرح البطريركيّ في دمشق حتّى العفيف في المهاجرين، ليمرَّ بالعجزة والمرضى واليتامى، وفي يَده بَركةٌ وعلى لسانه تَعزية، وفي صلاته إيمانٌ وخُشوع. كما يشهد أبناء أَخيه أمين أنّه كان يَزورهم وهم أطفال لمجرد سماعه بإصابتهم بسخونة أو مرض، وكان يُصرُّ عَلى الصّلاة معهم، ما كان يُعطيهِم تعزيةً روحيّةً كبيرَةً تُشعرهم بالرّاحة والشّفاء العاجل.

صفاتُهُ وفضائلُه:

كانت عيناهُ غَائرتَين في وجه نحيل مُشعّ. كان جسمُه نَحيلاً من عظم وجلْد، وروحُهُ تحمل جسدَه كَعبء، وتَحملُ شوقَهُ إلَى السَّماء، وهو دوماً في ذهول. المحبَّة والحنان كانا مرسومَين على وجهه ومحيّاه. وإذا ما طاف على شعب الله ومساكين الأرض من العاجزين والمرضى واليتامى، كانت في يده بَركةٌ وعَلى لسانه تعزيةٌ وصلاةُ إيمان وخشوع. كانت همومُه دينيّةً فكانت الكنيسةُ شُغلَهُ الشّاغل.

ما كان الأبُ حبيب حَسوداً، أو غَيوراً، أو طمّاعاً، أو

أنانيّاً، أو شَرهاً، أو مُتقلّباً أو مُرائياً. كان صافياً، شَفّافاً، صادقاً، مُستقيماً، ومُخلصاً للّه كلَّ الإخلاص. لا يُسيء الظّنَّ بصحبه، وتعامُلهُ مع الآخرين ملائكيٌّ السّمات. الشَّفافيَةُ سمَتُه الكُبرى، وهي خاليةٌ من الشّوائب والغموض. كَان مثل البلُّور الصّافي. يعرف الأشخاصَ وكأنَّ كُلاًّ منهم كتابٌ مفتوحٌ أمامَه. كيف؟ بجهادٍ مريرٍ ضدَّ كلِّ العُيوب. لقد وُلِدَ مثلَ كلِّ النّاس، ولكنّه ماً عاشَ مثلَ كلِّ النّاس.

ما كان إلى جانبه أبٌ روحانيٌّ من آباء البرّيّة ليدوّنَ لنا تاريخَ جهاده ضدَّ الأهواء حتّى إحراز النّصَر عليها. فزال عنه الظّلامُ وأشرقت فَيه شمَسُ البِرّ. شَفافيتُه ثمَرَةُ جهادِه فِي الرّوح القدس.

لا تستطيعُ الطّبيعةُ البشريّةُ السّاقطةُ، المظلمةُ، أن تبلغَ ملءَ الصّفاء، إلّا إذا تحوّلت بفعل الرّوح القدس وتجلّت كما تجلّى يسوع. فقد كان القدّيسُ سمعانُ اللاهوتيُّ الحديث يرى داخلَهُ مُستنيراً عندما يلمع فيه الرّوحُ القدس. هذا الرّوح عينه هو الذي حوّل شهيدنا حبيب إلى إنسان مستنير.

جعلته الرِّقّةُ أوهنَ من أن يردَّ سائلاً يأتيه محتاجاً. كان عدوّاً للمال، إنّما يُنفقه، بسخاءٍ وفهمٍ، على الفقراء.

إلى بساطته كان فَطناً. كان يسوعُ ملءَ حياته وجَنَباته فأناره بالكليّة. كثافةَ جسده كانت مَحدودةً، لَكنَّ روحَهَ كانت تتطلّعُ إلى العُلى. الأبَ حبيب إنسانٌ تبدّل كيانُه فصارت المحبّة والرحمة تنبعان من كلِّ كيانه، حتّى من أطراف أنامله. ليست المحبّةُ المسيحيّةُ رقّةً بشرية، بل استشهادٌ. في المسيحيّة كلُ كيان الإنسان ينسابُ في درهم يَدفعُه إلى الغير. الأبُ حبيب، في هذا، هو يوحنّا الرحيمُ الثّاني. الشَّبَهُ بينهما كبير. كان صفرونيوسُ الدمشقيُ إمام لاهوتيِّي زمانه، ومُعلّمه يوحنّا موخوس كانا مثالاً لديه، فقد بذل لهما من الاحترام والتقدير ما لا يوصف، حتّى قال أهالي الاسكندريّة إنّه ظلٌ لهما.

يقولُ أهلُ الاختصاص إنّ البُلهاء لأجل المسيح ظهروا أوّلاً في سوريا، وفي ٢١ تمّوز نعيّد للمتبالهَين سمعان ويوحنّا، والأبُ حبيب هو أحدُ هؤلاء المجانين لأجل المسيح. لقد وَضَعَ شهيدنا أنامله علىَ جراح المَساكينَ والعُجَّز فعانقَ جراحَ المسيح. جاهد الجهادَ المُرَّ ضدَّ كلِّ العُيوبَ وأحبّ حياة النُسّاك وأخبارَهم، فجاءت شفافيته ثَمَرَةَ الكدِّ في الرّوح القدس. عاشَ مَجروحاً بحبّ الربِّ يسوعَ ومات كذلك.

قَبْلَ الاستشهاد:

خَطَرَ للأب حبيب، مَرّةً، أن يخرجَ في رحلة إلى جبل الشّيخ (حيثُ اَستُشهدَ)، فَحَدَثَ لهُ أمرٌ غيرُ عاديٍّ أَطلعَ زوجتَه عليه، وهي روته في ما بعد. قال لها: «اليومَ، أثناءَ صلاتي، أَحسَسْتُ بأنّي ارتفعتُ عن الأرض أكثرَ من المعتاد». فرجَفَ قلبُ زوجته ورجَتْهُ ألّا يذهبَ، لا سيّما وأنّه كان من المفترض أن يترافق وآخَرين فاعتذروا، لكنّه لم يرضَ. فسَدّت البابَ في وجهه، فأخَذ يضحكُ قائلاً لها: «ما بالُك اليومَ على غير عادتك، تَمنعينني من الذَّهاب، مع أنّها َليست المرّةَ الأُولى التَي أخرجُ فيها إلى جبَل الشَّيخ؟». حاولَت زوجته، على مدى نصف ساعة، صرفَهُ عن الذَّهاب، على مرأىً من بقيّة أفراد أسرته، فَلم يَشأ. فتركته لإلهامه. فخرجَ وكان استشهادُه.

الشَّهادةُ:

اشتهى الأبُ حبيب، طيلةَ حياته، أن يمجِّدَهُ اللّه بميتة الشّهادة، فأعطاه اللّه مُنيةَ قلبه.

تركَ الأبُ حبيب دمشقَ بعد ظهر الخميس ١٥ تمّوز إلى عرنة حيث قَضى ليلته في بيت السيّد يوسف صليبا. وفي السّاعة الخامسة من صباح الجمعة ١٦ تمّوز انطلق

إلى سفح جبل الشَّيخ الغربيِّ برحلة علميّة ورياضيّة، والتماساً للرّياضة الرّوحيّة والتأمُّل حيثُ توجد آثارٌ قديمة رومانيّةٌ ويونانيّة. ويقول عنه الأبُ أيّوب سَميا مُعاصرُه إنّه طلب أن يَصعد إلى جبل الشَّيخ العالي فلم يسمحَ له آل صليبا إذ لم يوجد، في ذلك الوقت، أحدٌ يَصعد معه، فقال: إنّني ذاهبٌ إلى المهندسين الحكوميّين الموجودين هناك وهم من دائرة تنظيم المدَن ومعهم عبد اللّه يوسَف صليبا، فذهب معهم إلى عين السّنونو التي تَبعد عن البلد (عرنة) ربعَ ساعةٍ جنوباً في الجبل؛ وبقي المهندسون هناك بينما صعد هو إلى عين جفنة التي تبعد عن عين السنونو غرباً مدّةَ ربعِ ساعة، ومنها، وبعد استراحة ثانية، صعد إلى مكان يُدعى «وعرة الشعارنة»، ويبعد خمسَ دقائق غرباً، و بين الجميعِ طريقٌ خاصّةٌ غيرُ مشهورة يَسلكها الحطّابون والمُهرِّبون، وسُمِّيت «الوعرة» لوجود آثار بيوت قديمة خربة عليها، كانت مسكونةً من بعض أهالَي قريَة عينَ الشّعرا، وهناك جلس يستريح الاستراحةَ الثالثةَ ليبدأ، من بعدها، خَلوتَه الروحيّةَ، وكان يَقرأ في الكتاب المقدّس، وكان موَقعهُ هذا في ثلثيِ الطّريق إلى قرية شِبعا في الجنوبِ اللّبنانيّ.

وبينما هو يتفيّأ بظلّ صخرةٍ كبيرةٍ مرّت به قافلةٌ

من المُهَرِّبين مؤلَّفةٌ من عشَرة أشخاص اعتادُوا تهريبَ الحبوب والقمح على الدَّوابِّ منَ سوريا، من جهة بيت جنّ، إلى شبعا، فاستغربوا وجودَه هناك. وسألوه عن هُويَّته فأجابهم بكلّ الإيضاحات، فظنُّوه جاسوساً يهودياً؛ إلّاَ أنَّهَ لفتَ نظرَهم إلى ثوبه الكَهنوتيِّ فقالوا له: «إنّنا لم نقتنع بذلك». فطلب منهم تَوصيلَه إلى أقرب مخفر درك سوريٍّ أو لبنانيٍّ للتثبّت من هُويَّته، لكنّهم اقتادُوه إلى واد سحيق، ثمّ نزعوا عنه ثيابه وسَاقُوَه عارياً. ولمّا لم يعد قادراً على المشي ضربوه وجُروه حتّى وصلوا به إلى الأراضي اللبنانيّة وتابعوا تعذيبه أربعَ ساعات متواصلة لكونه كاهناً للعليِّ، حتّى لم يَبقَ مكانٌ في جسمه لم يُهشَّم. وبعد خَصيه حيّاً رَبطوه بحمار وصاروا يُدحرجونَه من أعلى التّلّ إلى أسفله. وقد شهد بَعضُهم أنّهم، أثناءَ تعذيبهم إيّاه، كانوا يطلبون منه أن يَجحد المسيح، لكنّه لم يَستجبَ لطلبهم رافضاً ذلك، ما زاد من غَضبهم ومن تَعذيبهم له. كانوا، كلّما ازداد هو رَفضاً، كلّما زادوا هم إمعاناً في تعذيبه. واستمرُّوا في تعذيبه حتّى خارت قواه ولم يَعُد يستطيع الكلام. ولم تُوقفهمَ حالُه هذه عن غيّهم بل ظلّوا مُصرّين على طلبهم منهُ وتَعذيبهم إيّاه؛ أمّاَ هو، وهو على هذه الحال، فكان يضع إِحدى أَصابعِ يدِهِ اليُمنى على إِحدى

أصابع اليُسرى على شكل صليب ويُقبّله رافضاً إنكارَ ربّه يسوعَ المسيح. وعندما يَئِسُوا منه وأدركوا أنّه لن يُحقّق لهم مَطلبَهم أصعدوه علَى صخرة عالية وألقَوا به إلى الوادي، فانكسرَ عمودُهُ الفقريُّ وفاضت روحُه الطاهرةُ إلى بارئها، فقضى شهيداً للمسيح. وشَهدَ أَحدُ زُملائه: «ما كان فيه عظمٌ غيرُ مكسور». بهذا تحقّقت أُمنيتُهُ التَي كان يُردِّدها مِراراً: «يا ربُّ، أَعطِني ميتَةَ المسيح».

وفي أثناء تعذيب الأب حبيب مرّ بالمكان فتىً مسيحيٌّ من عرنةَ واسمه سَليم إبراهيم شاهين في الثّانيةَ عَشرةَ من عمره، وكانت الساعةُ الثالثةَ ظهراً، فرأى أحدَهم يحمل الأبَ حبيب عارياً بشكل مقلوب، فسألهم عنه فقالوا إنّه يهوديّ. فأسرعَ إلى عرنةَ ووصلها في الساعة الخامسة فرأى البلدةَ مُضطربةً لطول غياب الأب حبيب، فحَدَّثَهم بما شاهده. فأَيقنَ الجميعُ أنّه هوَ الأَبُ حبيب وأنّه، لا شكّ، قُتل فأسرَعوا وأَعلَموا مخفرَ المنطقة الذي اتّصل، بدوره، بمخفر درك شبعا من حيثُ توجّهت قوّةٌ مشتركة، سورَيّة لبنانَيّة، إلى المنطقة وعَثرت على جثّة الأب حبيب عاريةً تُغطّيها الدماءُ، والكُسورُ باديةٌ فيها، وبالأَخصّ في العَمود الفقريّ، فنُقلت الجثّة إلى دمشق حيثُ صلّى غِبطة البطريرك ألكسندروس عليها ورَثَى

الأبَ حبيب بكلمة أبويّة وصفهُ في مُستهلّها بالقدّيس. ثمّ دُفن في مَدفن الكهنة في مقام القدّيس جاورجيوس في المقبرة الأرثوذكسيّة شرقيَّ سور دمشق.

وفي المحكمة تعرّف الفتى سليم على الجُناة الذين ادّعَوا أنّهم ظنُّوه جاسوساً يهودياً لأنّه كان مُختتناً. وقد نظر المجلسُ العدليّ اللبنانيّ في هذه الجريمة[1]، وقرّر الحُكم بالإعدام على المُتَّهَم الرئيس فيها المدعوِّ (أحمد علي حسن أبي الحسن) شنَقاً حتّىَ الموت.

وقد تَظلّم أهالي شبعا لدى رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة لتَخفيف الحكم، وأوضَحوا له بُعدَهَم عن الطائفيّة وأنّ هذه الجَريمةَ لم تُرتكب بحقّ كاهن بقدر ما ارتُكبت بحقّ «جاسوس يهوديٍّ» كما بدا لهم. إلّا أنَّ المجلسَ العدليَّ ورئيسَ الجمهوريّة أكّدا الحُكم وصدّقه رئيسُ الجمهوريّة. وقد نُفِّذ الإعدامُ شنقاً فجرَ السّبت ٢٥ أيلول ١٩٤٨ في سجن الرّمل في بيروت.

[1] مرسوم رئيس الجمهورية اللبنانية رقم ١٢٤٠٩ بتاريخ ٢٠ تمّوز ١٩٤٨

شهادات اهل زمانه فيه

الجريمة الوحشية

رعاع من شبعا يقتلون كاهناً أرثوذكسياً جليلاً بعد أن أذاقوه العذاب وشنّعوا في جسمه تشنيعاً.

(جريدة صدى الجنوب - وثيقة من وثائق بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس رقم ٤٣١٢، ٢٦ تموز ١٩٤٨).

تفاصيل الجريمة

الكاهن حبيب خشّة، من كهنة المقر البطريركي الأرثوذكسي في دمشق، كاهن من أوّلي الفضل والعلم يبلغ من العمر الستين، غادر دمشق بمعرفة المقر البطريركي إلى قضاء قطنة في سوريا للقيام برحلة رعائية وتفقّد أحوال الكنائس فيها. جاء قرية عرنةً الواقعةً على المرتفعات السفح الشرقي من جبل حرمون، وقد بات ليلته عند أحد أبناء الرعية ومن ثم غادرها متوجهاً نحو القمة، ليشرف على تلك المناظر.

ابتعد عن القرية مسافة ستة كيلومترات فصادفه خمسة من الأكارين الشبعاويين الذين كانوا ينقلون الحنطة من سوريا إلى لبنان، فاستدرجوه إلى محلة مقفرة في متوسط الطريق بين شبعا وعرنة، وهناك فتكوا به بصورة يشيب لها رأس الوليد وترتعد لهولها الفرائص، فضربوه بالعصيّ ضرباً مبرحاً، حتى أثبت الفحص الطبي أنه لم يبقَ عضو في جسمه سليماً، ورموه عدة مرات من أمكنة عالية، حتى انقطع عاموده الفقري فقضى بعد عذاب يصعب أن نصفه بإسهاب كما أثبته التحقيق. وقد عرّوه وهو في قيد الحياة من ثيابه الكهنوتية، وشنّعوا في أعضائه بشكل يدلّ على بربرية لا تحدّ، ثم جرّوه بحبل جرّاً، حتى أوصلوه إلى القرية وهناك أعلنوا أنهم وجدوا يهودياً، وقتلوه على ذاك الشكل الغريب.

صبحي يكشف الجريمة

وبينما كانوا يجرّونه عرياناً مرّ يافعٌ من قرية عرنة، وهو مسيحي، يعرف الكاهن لأنه ضيف والده، فوصل إلى قريته وأعلم أهله، وهؤلاء اتصلوا بمخفر قطنة وهذه بدورها اتصلت بقيادة الدرك في سوريا الجنوبية التي أبرقت إلى الدرك اللبناني في مرج عيون. ويظهر أن الجناة الخمسة وكان قد انضمّ إليهم غيرهم، قصدوا

إخفاء الجريمة ولكن مرور اليافع ومشاهدته الحادث حملتهم على التفكير بالأمر فأقرّوا أن يظهروها مدّعين أنه يهودي، وكذلك إخفاءً لقيافته الكهنوتية، نزعوا ثيابه وجاؤوا به عرياناً.

الجريمة في قيادة الدرك

وقبل أن تصل معلومات الدرك السوري كان مخفر شبعا اتصل هاتفياً بالملازم بولس جرمانوس وأعلمه بالحادث، وهذا اتصل حالاً بالمطران ثيودوسيوس أبو رجيلي الذي يعرف الكاهن شخصياً، فتيقن من وجود حادث قتل ضحيته كاهنٌ يُدعى حبيب خشة. أفادت البطريركية في دمشق أنه ترك دمشق إلى قضاء قطنة بمهمةٍ روحيةٍ، فتوجّه الملازم على رأس مفرزةٍ من درك مرج عيون وحاصبيا وشبعا إلى شبعا، وباشر بالتحقيق، ثم وصل النبأ إلى النيابة العامة ... وتمَّ القبض على الجناة جميعهم وأُودعوا السجن، وذلك بفضل التدابير الحازمة الحكيمة التي أبداها قائد الفصيل السيد بولس جرمانوس والمساعدة التي أدّاها ذوات شبعا الذين استنكروا الحادث أمامهم والذين وجّهوا برقياتٍ للسلطات اللبنانية والسورية يستنكرونه ويطلبون للجناةً أشدّ العقاب.

نوايا الجناة

ثبت من التحقيق أن الجناة أخفوا تذكرة هوية الكاهن، التي تدلّ عليه، كما حاولوا إخفاء قيافته الكهنوتية بنزع ثيابه، لذلك أصبح الجميع مقتنعين من أولياء الأمر أن الرعونة النفسية حملت الجناة إلى ارتكاب جنايتهم.

صدى الجريمة

أما في الأوساط الإسلامية، لا سيما أهالي شبعا المتنورين فقد قوبلت الجناية بالاستنكار وقد ذكرنا ما كان من مصادفتهم للمحققين، ومن إرسالهم برقيات للسلطات يطلبون التشدّد بإنزال العقوبات على الرّعاعً من مواطنيهم، ومن البديهي أن تهتزّ الطوائف المسيحية المختلفة لهذا الحادث. لكن العقلاء منهم ومحافظةً على الوئام الذي يجب أن يسود روح الشعب الواحد في عهده الاستقلالي، وفي هذه الظروف الحرجة حيث يقاتل اللبنانيون صفاً واحداً في سبيل قضية واحدة، وحيث يجب أن تُدفَن روح الضغائن الطائفية البالية، لكي لا يستفيد الخصوم منه، يريدون أن يحصروه كما هي الحقيقة في رعاعٍ لا ثقافة لهم ولا ضمير ولا يدركون مضارّه الاجتماعية الوطنية.

تعليق الصدى

أولاً، علينا أن نثني ثناءً عاطراً على الملازم الأول بولس جرمانوس قائد فصيل درك مرج عيون ومرؤوسيه كرئيس مخفر شبعا وحاصبيا، والعريف النشيط الياس ميلان وعلى حضرة النائب العام الشيخ عادل تقي الدين والمستنطق السيد عثمان الدنا وحضرة قائد درك قطنا الملازم الأول نور الدين وقائد الكتيبة في سوريا الجنوبية المقدم محيي الدين، الذين برهنوا عن اهتمامٍ جديٍ بكشف الستار عن الجريمة وقامو بمواجهتهم خير قيام.

ثانياً، علينا أن نتوجه إلى العموم من إخواننا المسيحيين أن يقدّروا موقف العقلاء من إخواننا المسلمين، فلا يروا في الحادث، مهما كان وحشياً، إلا عملاً محصوراً بجماعة من رعاع القوم معدومي الثقافة، ولا شك عندنا أن الحكومةَ الساهرةَ على حياة العباد، والقضاءَ اللبناني النزيه سيعملان على احترام القانون، وصيانة هيبة الحكم الأمر الذي يتوخّاه جميع اللبنانيين على اختلاف نِحَلِهم.

إن مثل هذه الحوادث غير مستغربة في بلدٍ لم تعمّ الثقافة كلَّ أبنائه، وكثيراً ما تكون هذه الحوادث على خطورتها حافزاً للخير والإصلاح، فلا تُتّخذ منه فرصةٌ لجرح هذه الوحدة الوطنية التي نحرص على المحافظة

عليها كل الحرص، ولا نفسّره بما لا يتلاءم مع أهدافنا القومية رغم كل ما يُشتمّ منه من روائح النعرة القديمة التي لم تزل معشعشةً في أذهان بعض رعاعنا.

رحمة الله على الكاهن القتيل وعزاءٌ لآله وذويه، وتعزيتنا للسادة غبطة البطريرك ألكسندروس والمصف الأسقفي الجزيل الوقار.

جريمةٌ بربريةٌ يذهب ضحيّتها كاهن

سلبوه ونزعوا ثيابه ودقّوا رأسه بالحجارة

(جريدة النهار، العدد ٣٩٤٠، تاريخ ٢٠ تموز ١٩٤٨)

يصطاف الخوري حبيب خشه أحد رجال الإكليروس الأرثوذكسي في قرية «عرنة» (لواء دمشق). وقد خرج صباح السبت الماضي من القرية مشياً على قدميه في نزهة بالقرب من رأس العين، فصادفته عصابةٌ من الأشقياء مؤلفةٌ من بضعة رجال فاعتدوا عليه وسلبوه ما معه من المال ونزعوا ثيابه ودقّوا رأسه بالحجارة ثم عمدوا إلى تشويه جسده تشويهاً تاماً لإخفاء معالم الجريمة.

وصادف أن مرّ في ذلك المكان أحد المزارعين من أهالي «عرنة» فشاهد جثّة الكاهن غارقةً في بحرٍ من دمائها، فأخبر حالاً مركز الدرك. فقام القائد بالتحقيق السريع

ونُقلت الجثّة إلى البلدة لفحصها، ثم نقلت إلى دمشق. وقد جرى للكاهن الشهيد مأتمٌ مهيبٌ ترأّسه غبطة البطريرك ألكسندروس الثالث الذي طلب من المسؤولين إنزال العقوبات الصارمة بالمجرمين.

هذا وقد علمنا أن رجال مخفر الحدود في جبل الشيخ تمكنوا من إلقاء القبض على عددٍ من هؤلاء المجرمين ثبت أنهم من قرية شبعا (لبنان)، وأنهم يتعاطون تهريب الحبوب بين سوريا ولبنان وفلسطين.

ويتعاون الآن رجال درك الحدود في سوريا ولبنان في البحث عن سائر المجرمين.

رحم الله الكاهن الشهيد وأسكنه فسيح جنانه وألهم أرملته وأولاده جميل الصبر.

برقيات استنكار

وقد جاءنا من راشيا وحاصبيا عدة برقيات تحمل تواقيع الكهنة والوجهاء والشعب تحتج على هذا العمل البربري الفظيع.

طروبارية

الأبوين الشّهيدين في الكهنة

نقولا خشّة الدّمشقيّ
حبيب خشّة الدمشقي

١٦ تمّوز

باللحن الثّالث   Γα

وزن: تين أوريوطيطا (Τὴν ὡραιότητα)

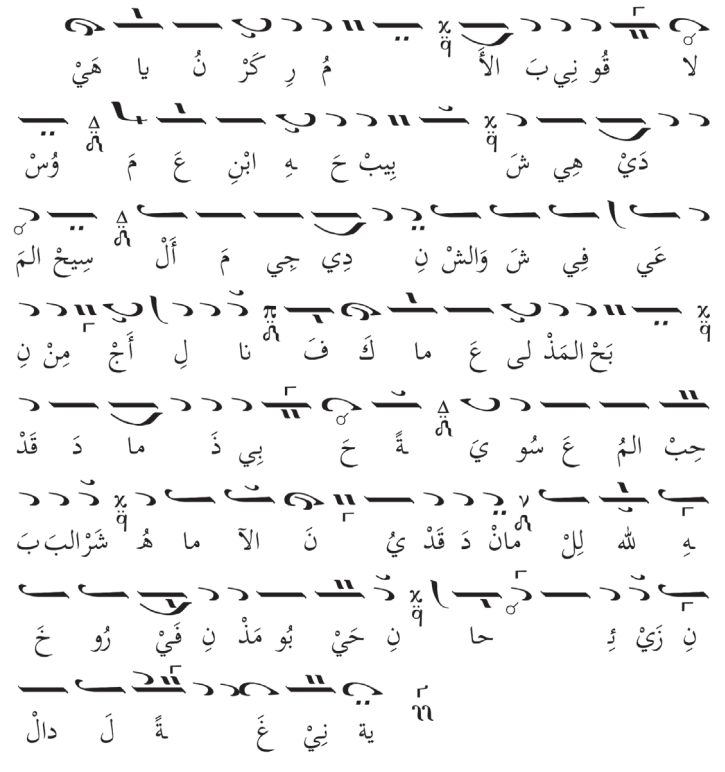

هَيّا نُكَرِّمُ. الأَبَ نيقولاوس. معَ ابنِهِ حبيب. شَهِيدَي المسيح. المجيدَينِ والشَّفيعَينِ مِن أجلِنا. فَكَما على المذبح. قدَّما ذبيحةً. يَسوعَ المُحِبَّ البشر. هُما الآنَ يُقَدَّمان. للّٰهِ خَرُوفَينِ مَذبُوحَينِ. حائزَينِ دالَّةً غنيّة.

أخرى باللحن الأوّل

وزن: طيس إريمو بوليطيس (Τῆς ἐρήμου πολίτης)

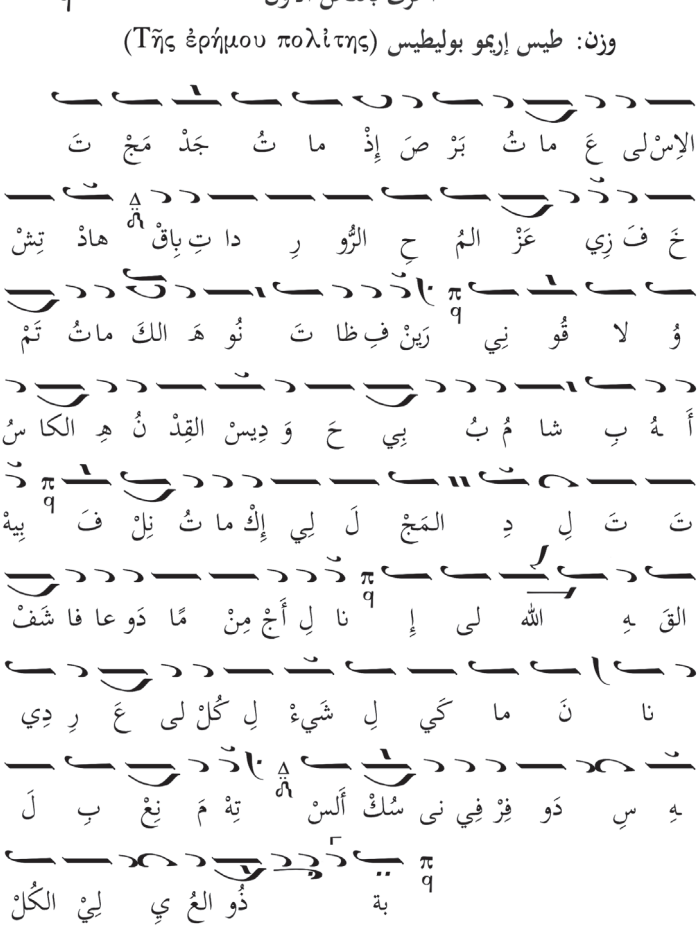

تَمَجَّدتُما إِذْ صَبَرتُما على الاِستشهاد. بِاقتِدارِ الرُّوحِ المُعَزّي. فَخَتَمتُما الكَهَنُوتَ ظافِرَين. نيقولاوُسُ الكاهِنُ القدّيس. وَحَبيبُ مُشابِهُ أبيه. فَنِلتُما إِكليلَ المجدِ. لِتَتَشَفَّعا دَوماً مِن أجلِنا. إلى اللهِ القديرِ على كُلِّ شيء. لِكَيما نَنالَ بِنِعمَتِه. السُّكنى في فِردَوسِه. الكُلِّيِّ العُذُوبة.

المصادر

الكتب والدراسات والوثائق:

- بيطار، الأرشمندريت الراهب توما. القدّيسون المنسيّون في التراث الأنطاكيّ. الطبعة الأولى. بيروت: منشورات النّور، ١٩٩٥، ص ٥٧١-٥٧٧.

- جبّور، اسبيرو. «في تراثنا الخوري حبيبُ خشّة.» المرأة في نظر الكنيسة. اللاذقية: مطرانيّة الرُّوم الأرثوذكس، ١٩٩٤، ص ١٩-٢٥.

- رستم، أسد. كنيسة مدينة اللّه أنطاكية العظمى. الجزء الثالث. جونيه: المكتبة البولسية، ١٩٨٨، ص ٢٩٦.

- زيتون، جوزيف. زيارة البطريرك إغناطيوس الرابع إلى أنطاكية والإسكندرونة وكيليكيا. دمشق: بطريركية أنطاكية وسائر المشرق، ١٩٩٤، ص ١١٦-١١٧.

، الخوري الشهيد نقولا خشّة الدمشقي وابنه الشهيد حبيب خشّة الدمشقي.» النشرة البطريركية تموز١٩٩٤، العدد ٧: ص ٣٣-٤٢.

- ذكرى شهيد، مراثي قيلت في شهيد الكنيسة والوطن المثلث الرحمات الخوري نيقولا خشّة الدمشقي. القاهرة: مطبعة الهلال ١٩٢٠.

- السيرة العطرة للأبوين الجليلين الشهيدين في الكهنة الأب نيقولا خشّة والأب حبيب خشّة. القاهرة: كنيسة القديس نيقولاوس، ٢٠٠٧.

- محفوظات بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، الجزء الخامس (أبرشية أنطاكية - أبرشية مرسين - أبرشية دياربكر - أبرشية الموصل). البلمند: معهد التاريخ والآثار والتراث الشرقي، ٢٠٠٧، من الوثيقة رقم ١٢٨ ص ٤٤ إلى الوثيقة رقم ٣٦٤ ص ١٩٦.

- سجل جلسات المجلس الملي، وثيقة رقم ٢٣٨٤ - وثائق بطريركية أنطاكية وسائر المشرق.

- الجلسة ١٩ تاريخ السبت ١١ آذار ١٩٠٦، ص ١٤.

- الجلسة ٢١ تاريخ الأحد ١٩ آذار ١٩٠٦، ص ١٦.

- سميا، الخوري أيوب. سجل الضابط رقم ١. «استشهاد

الخوري حبيب خشّة ١٩٤٨». وثيقة خط يده، ص ٢٩٢. أرشيف بطريركية انطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس.

- صحيفة صدى الجنوب، «الجريمة الوحشية»، الوثيقة رقم ٤٣١٢، تاريخ ٢٦ تموز ١٩٤٨. المغلف ١٦- العدد ١٨ من أرشيف بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس.

- جريدة النهار، «جريمةٌ بربريةٌ يذهب ضحيتها كاهن»، العدد ٣٩٤٠، تاريخ ٢٠ تموز ١٩٤٨: ص ٤. راجع أيضا؛ العدد ٣٩٤٤ تاريخ ٢٤ تموز ١٩٤٨، العدد ٣٩٦٨ تاريخ ٢٣ آب ١٩٤٨، العدد ٣٩٦٩ تاريخ ٢٤ آب ١٩٤٨، العدد ٣٩٧٢ تاريخ ٢٨ آب ١٩٤٨، العدد ٣٩٩٨ تاريخ ٢٦ أيلول ١٩٤٨.

- بعض الصُحف السّوريّة واللبنانيّة تمّوز، آب وأيلول ١٩٤٨ (ألف باء الدمشقيّة – الدّنيا البيروتيّة – بيروت – الحياة – إلخ...).

- روايات شفهيّة دمشقيّة من معاصِريه.

- أحاديث لأبناء الأب الشهيد في الكهنة حبيب خشّة فدوى، سليم، ولأحفاده هاني، فادي، نايلة مع البطريرك يوحنا العاشر.

الأب حبيب مع عائلته

الأب حبيب مع عائلته

وجه الصورة: الأب حبيب مع عائلته

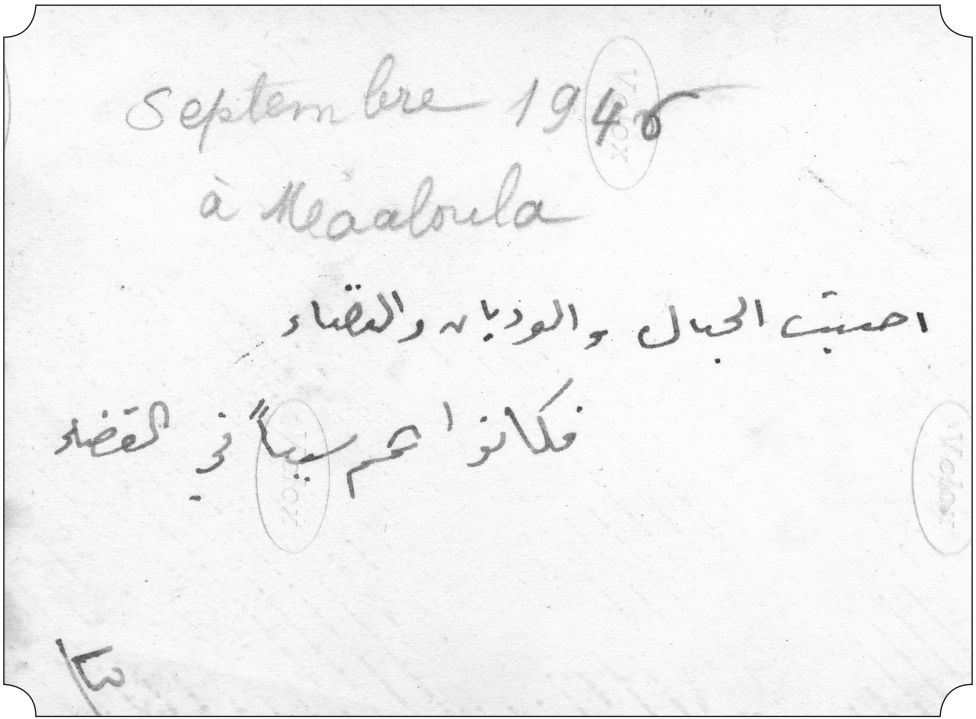

خلف الصورة: كتابة بخط يد الأب حبيب

تنفيذ
مطبعة باب توما
دمشق

منشورات
بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس
٢٠٢٣